الباب الثاني

مقدمات في سنن العمران البشري في السيرة النبوية

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد:

إن المتأمل في ثنايا الحركة الرسالية للأنبياء عبر التاريخ، كما خلدها القرآن الكريم في إشارات مفصلية معرفياً ومنهجياً يبصر تلك المستويات المختلفة في الجهد الرسالي، بحسب طبيعة الرسالة والكسب الذي بلغه الإنسان في تعامله مع الحسي المادي، والمجرد المتعالي بهدف تمكين هذا الإنسان من وعي تسخيري استخلافي يجعله قادراً على استجماع شروط الأصالة والفعالية والاطراد، لتحقيق الأداء الحضاري. وقد ظل هذا الجهد يتراكم ويتكامل وفق سننية أرادها الله تعالى أن تحكم حركة التاريخ ومسيرة الحضارات حتى استوى الأمر على سوقه، واكتملت لبنات البناء السنني وعياً ومنهجاً ورؤية وصياغة وتنزيلاً، تحقيقاً لأعظم تحول في تاريخ البشرية مع الرسالة الخاتمة التي أحدثت تلك النقلات الحاسمة في تمكين الإنسان من الأطر المنهاجية والمرجعية والمفهومية للتعامل مع الكون والوجود بإيجابية وأصالة وفعالية واستدامة، بما يحقق كرامة الإنسان، ويحرره من كل العبوديات المزيفة، ويخلصه من كل تيارات الاستضعاف والاستكبار، مخلصاً الوجهة لله وحده، انسجاماً مع الكليات الكبرى الناظمة للرسالة الخاتمة: التوحيد، والتزكية، والعمران، والاستخلاف، والشهادة، والعالمية.

ولعل إدراك حقيقة وعمق التحول السنني الذي أحدثته الرسالة الخاتمة يستوجب منا إعادة تجديد درس السيرة النبوية، وذلك بالقيام بتقييم عام للدراسات المنجزة حول السيرة وفق المقاربة السننية، وانطلاقاً من منهج التأسي المقاصدي، للوقوف على حجم الخلل الحاصل في المنظومة الثقافية التي استحكمت حلقاتها في عزل السيرة النبوية عن أن تكون قوة محفزة لإعادة الأمة إلى القيام بواجب الشهادة من خلال اعتماد المقاربة السننية العمرانية لوقائع السيرة النبوية، للكشف عن ذلك التحول التاريخي الذي أنجزه الفقه السنني النبوي من خلال أبعاده الكبرى: العقدية، والنفسية، والاجتماعية... داخل البيئة العربية ببنياتها الاجتماعية، وأطرها المعرفية

السائدة قبل البعثة، من هنا سنتناول في هذا الباب ثلاث قضايا كبرى شكلت عناوين لفصول ثلاثة وهي: الفقه السنني وتجديد درس السيرة النبوية، والفقه السنني النبوي والسياقات المتعددة، وفقه الكليات السننية للعمران البشري في الهدي النبوي.

obeikandl.com

الفصل الأول:

الفقه السنني، وتجديد درس السيرة النبوية

تمهيد:

لا يمكن بحال من الأحوال أن تظل السيرة النبوية مجرد خبر من التاريخ، أو تحقيق لمخطوط في التراث، أو دراسة وتخريج لمرويات -على أهمية ذلك وخطورته، وتقدير جهود العلماء والباحثين في ميدان التحقيق ودراسة المرويات- دون استحضار مستجدات العصر ونوازله، وتراكمات العلوم والمعارف وتطور المناهج، إن مركزية ومصدرية السيرة النبوية في الهداية السننية للفعل العمراني البشري ينطلق من كونها تختزن ثروة تسخيرية سننية، ورصيداً استخلافياً عمرانياً عالمياً راشداً، مما يقتضي معه الأمر ضرورة تفعيل هذه المصدرية المعرفية للسيرة النبوية في مجال سنن العمران والاجتماع البشري، والكشف عن السنن التي تضمنتها وقائعها وأحداثها.

ونذهب إلى القول: إن السيرة النبوية لا تشكل مصدراً معرفياً فحسب، نستقي منه السنن القاضية بإقامة عمران إنساني عالمي، وإنما تقدم لنا أيضاً معالم وضوابط منهجية في كيفية فهم السنن، واستثمارها، وإحكام العمل بها، وتسخيرها في مشاريع النهوض والإصلاح، ولذلك فإن أية محاولة لتجديد درس السيرة، أو الانخراط في إعادة قراءة وقائعها ومروياتها بما يستجيب لطبيعتها وتحديات الواقع المعاصر، لا بد أن يتم بأطر معرفية، وضوابط منهجية، وأدوات ووسائل تحليلية من داخل المنظومة العقدية والتشريعية والقيمية الإسلامية، تراعي مقاصد الشريعة وكلياتها الأساسية.

وستشكل هذه القضايا وغيرها أهم معالم ومسائل هذا الفصل الأول من فصول الباب الثاني من الكتاب.

أولاً: السيرة النبوية مصدراً للفقه السنني

تمثل السيرة النبوية، التجسيد العملي والتنزيل الواقعي للمنظومة السننية القرآنية

في بناء العمران البشري، وهي تمثل إلى جانب القرآن المجيد مصدراً للهداية السننية. ذلك أن الغاية من إرسال الرسول ﷺ هي تحقيق الهداية للعالمين، "والهداية بلفظها وحروفها وصياغتها وروح معناها توفيق ورحمة، ويقين وإيمان، وطمأنينة وسكينة، وعلم وعمل، وتحصيل أقصى ما يمكن من البر والخير، وتحقيق لحكمة الله وسنته في الإفادة من حقائق هذا الكون العظيم، ووشيجة تعبد بين الخالق والمخلوق، ووسيلة لبلوغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في تحقيق خلافته عن الله تعالى في الأرض"[1] إن الهداية السننية المستمدة من المنهج والحركة النبوية التي تجعل الإنسان المسلم والمجتمع الرسالي في تناغم مع سنن الله تعالى، وتمنعه من مصادمتها أو التغافل عنها، هي التي توفر لهذا الإنسان والمجتمع الإحساس باليقين، والشعور بالتوفيق الإلهي، وتجاوز كل أشكال الصراع المفضية إلى القلق والافتقار إلى الطمأنينة، وتمكنه من التناغم مع ذاته ومع الكون بما يسعفه في الإفادة من حقائقه مع بلوغ أعلى درجات ومستويات التحقق بمقتضيات الاستخلاف، واستجماع شروط الاقتدار السنني للعمران البشري.

إن السيرة النبوية بلا شك هي "الفعل الإنساني النموذجي الفذ، الذي تكاملت فيه بصورة رائعة أبعاد ومكونات "الدورة الإنجازية" للفعل التغييري الأصيل الفعال المطرد... لذلك فهو يشكل الإطار المرجعي الموجه لأي عمل يقوم به المسلم في مجال الدعوة وتجديد الأمة"[2] إن ذلك التكامل النموذجي بين أبعاد ومكونات الدورة الإنجازية للفعل العمراني العالمي الذي تحقق في السيرة النبوية هو الذي يحفز العقل المسلم بإعمال منهجية تحليلية استنتاجية تركيبية، لاستنباط تلك السنن التي حكمت هذه الدورة الإنجازية، ولإخراج الأمة من حالة الوهن والضعف الحضاري.

---

(١) عرجون، **القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين**، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٢) برغوث، **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، مرجع سابق، ص٣٦٠-٣٦١.

إن الكشف عن العطاء اللامحدود للسيرة النبوية في الفقه السنني العمراني هو الذي يصنع ذلك الوعي، وذلك اليقين في محورية السيرة النبوية في إعادة إخراج الأمة المسلمة، وتمكينها من تجاوز أزمتها الحضارية المعاصرة، وتشكيل العقل المسلم وفق وعي سنني متكامل، مع إسعاف العلوم الاجتماعية والإنسانية في الخروج من أزمتها التي ما فتئت تعبر عنها من خلال الإرباك الحاصل في مناهجها مع كثرتها وتناسلها في مقابل ندرة نتائجها.

ولا شك أن مركزية ومصدرية السيرة النبوية في الهداية السننية للفعل العمراني البشري، إنما تستمدها من كونها مسددة بالوحي وبالتجارب الرسالية السابقة، ولذلك فهي تتميز بأصالتها من حيث صدورها عن الأصل، وما تحمله هذه الأصالة من عمق المنهج وعالمية الرسالة وربانية القيم؛ ولأنها تتميز بأصالتها، فإن ذلك يعني أنها واقعية ومتوازنة بالتبع، لتعلق مضامين خطابها، وتفاصيل حركتها الواقعية بالتوجيه الإلهي، والتسديد الرباني، فجاءت هذه السيرة النبوية؛ لتلبي حاجات الإنسان، والمجتمع؛ النفسية، والقيمية، والفكرية، والاجتماعية، والمادية، كما تتميز بفعاليتها من حيث إمكاناتها في إحداث النقلة المنهجية والمعرفية في بناء العمران البشري، وإتمامها اللبني[1] لتاريخ الرسالات وتجارب النبوات، وبنموذجيتها في كونها تمثل القدوة العليا والأسوة المطلقة في التأسي المقاصدي بالحركة النبوية في إنجاز الأمة اليوم لدورتها العمرانية الحضارية، وبشموليتها حيث استغرقت قضايا الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة والحضارة، مما يفتح الجهد العلمي المسلم على استثمار وقائعها وأحداثها في اتجاه صياغة فقه سنني للعمران البشري، واستبصارها واستشرافها لآفاق رسالية كبرى ورحبة من خلال استثمارها لمنظومة سنن التأييد والاستعانة، وإخبارها بالمبشرات، وتحذيرها من الفتن القاضية بأن أية غفلة أو قصور في الوعي أو خلل في استثمار معطيات المنظومة السننية في بناء العمران البشري مفض

(١) ستأتي الإشارة إلى هذا المعنى في حديث "فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيئين" مع تخريجه واستنباط دلالاته.

إلى تفكك الأمة وهزيمتها الحضارية.

وقد عبر الطيب برغوث عن خيبة أمله حيث لم يعثر على مؤلفات في السيرة تقدم رؤية كلية لتفسير حركة التاريخ بقوله : "وقد كان أملي كبيراً أن أجد في مكتبة تفسير القرآن، وشروح السنة والسيرة النبوية خاصة -لصلتها المباشرة بمنبع أو منجم الوعي السنني القاعدي المطلق- ما يشكل الإطار المعرفي والمنهجي لنظرية أو رؤية كلية متناسقة، في تحليل وتفسير وتأطير حركة التاريخ، في صيروراتها الحضارية المتعاقبة، لكن النزعة التخصصية المحددة في بعض المؤلفات، والنزعة الجزئية المستغرقة في الجزئيات في البعض الآخر، والنزعات الروحية الذاتية المستغرقة في الخرافات أحياناً، في قطاع آخر واسع من المؤلفات، وغياب أو ضعف نمو منظومة العلوم النقدية التركيبية الجامعة، حالت دون تأسيس وبناء صرح هذه النظرية أو الرؤية الكلية المتناسقة، في فلسفة التاريخ والحضارة."[1] ولكن هذا القول ليس على إطلاقه لسببين اثنين على الأقل: أولاً لأنه من غير الموضوعي أن نحاكم جهود المفسرين وشراح السنة والسيرة بأطر معرفية ومنهجية، هي وليدة تراكم تاريخي وتطور في المناهج وأدوات البحث العلمي، على أن هؤلاء المفسرين والشراح أفرغوا وسعهم وغاية جهدهم في استنباط المعاني والمقاصد والأحكام استجابة لملابسات عصرهم، وما توافر لديهم من أسباب العلم والمعرفة، وثانياً لأنهم قدموا نظرات متفرقة ومنثورة في كتبهم حول قضية السنن تعد شكلاً من أشكال التفاعل مع الوحي في تجديد الفهم ومقتضيات صياغة هذا الفهم وآليات تنزيله ضمن ما يصطلح عليه بالاجتهاد التنزيلي، أو ما اصطلح عليه برغوث في قوله السابق بفلسفة التاريخ والحضارة.

لقد طغى على كثير من الدراسات التي اهتمت بقضية السنن الحديث عن الجانب التأصيلي، وبيان أهمية السنن وضرورتها مع القيام بتطبيقات من القرآن الكريم بوصفه

---

(١) برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، ص٣٩.

مصدراً للسنن، ولم تتم الإشارة إلى السيرة النبوية على أنها مصدر أساس من مصادر الفقه السنني إلا فيما كتبه الطيب برغوث من إشارات في بعض مؤلفاته،[1] ومن قبله إشارات هنا وهناك لبعض المفكرين والباحثين كتلك التي دبجها يراع المفكر العراقي عماد الدين خليل.

ولا يخفى أن الحاجة اليوم ملحة إلى تقديم رؤية واضحة في معالمها، مؤصلة في منطلقاتها، ودقيقة الصياغة لقواعدها وأصولها تسمح بتطوير الكسب البشري في مجال سنن العمران البشري، وتوجيهه وترشيده بأطر معرفية وقيمية تستمد مصدريتها من السيرة النبوية وتستهدي بأنوارها وتتفيأ ظلال تطبيقاتها القرآنية. "فالسيرة النبوية، التي هي الإطار الزمني للقرآن الكريم مفرقاً ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وهي الإطار الزمني أيضاً لبيان رسول الله ﷺ من السنة الصحيحة. فالسيرة هي قصة النبي الخاتم، قصة أعظم رسول وأعظم نبي وأعظم بشر. فقصته الكبرى توجد في السيرة النبوية. وإذا كانت قصص الأنبياء توجد في القرآن الكريم، وتوجد إشارات إليها وبيانات في السنة الصحيحة أيضاً، فقصته ﷺ موجودة في السيرة النبوية التي هي "الصدى العملي الأعلى للقرآن الكريم". هذه الحقيقة تجعلنا ننظر إلى السيرة النبوية في علاقتها بالقرآن الكريم، نظرة جديدة مهمة في زماننا هذا؛ لأن واقع الأمة لا بد من العمل على الانتقال منه إلى الموقع الذي يريد الله منها أن تكون فيه، وهو موقع الشهادة على الناس. هذا الانتقال أكبر مرشد له وأكبر هدى منهاجي يمكن أن نستخلصه له هو في تلك السيرة مربوطةً بالقرآن الكريم، أو من القرآن الكريم مربوطاً بالسيرة؛ لأن كثيراً من وقائعها موجود في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالحياة الخاصة لرسول الله ﷺ، والحياة العامة في المرحلة المكية والمرحلة

(١) وضع الطيب برغوث عنواناً فرعياً في الفصل الأول من الباب الثالث وسمه بـ: أهمية الدراسة السننية للسيرة النبوية، من خلال صفحات من كتاب من الحجم الصغير بما يعني أن إشارة برغوث مهمة وإن لم توف الموضوع حقه. انظر:

- برغوث، **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، مرجع سابق، ص٣٦٠-٣٦٢.

المدنية كلها مفصلة في القرآن الكريم، وفي بعض الأحيان أكثر مما هي مفصلة في السيرة نفسها. فلا يمكن دراسة السيرة النبوية بمعزل عن القرآن، ولا يمكن دراسة القرآن -من هذه الزاوية- بمعزل عن السيرة النبوية."[1]

إن وضوح الرؤية المعرفية في استثمار السيرة النبوية والوعي المنهجي بالحركة النبوية بوصفها حركة جهد واقعي تكاملت فيه عناصر الرؤية والرسالة، وفقه الواقع، والاستراتيجية والتخطيط والتنفيذ والتقويم والحماية والاستشراف، هو الأقدر على إنجاح مهمة المدخل السنني في فهم السيرة النبوية ورؤية تلك الآفاق الرسالية العمرانية التي أراد النبي ﷺ من أمته أن لا تغيب عن تفكيرها وشعورها اليومي، وهي تخوض معتركات الابتلاء والتدافع والتجديد والمداولة العمرانية.

إن في السيرة النبوية الشريفة ثروة تسخيرية سننية، وميزانية استخلافية عالية قادرة على إعادة تشكيل منهج التفكير والعمل لدى المسلم، والعودة بالأمة إلى دور الشهادة وقيم الخيرية والوسطية والعالمية، لكن بمنظور حضاري عمراني تكاملي يسمح باستثمار تلك الثروة التي تزخر بها السيرة في أفق إعادة النظر في ضوابط التعامل مع نصوصها ووقائعها، التي لا ينبغي أن يقتصر فيها على مجرد التحقق من نصوص السيرة وتخريج ودراسة مروياتها، واستنباط الأحكام التشريعية الفقهية منها والتوجيهات الأخلاقية والدروس في منهج الدعوة والتربية، وهو ما لا يمكن إنكار أهميته وخطورة الإعراض عنه، بل -بالإضافة إلى ذلك- ضرورة اتخاذ السيرة النبوية مصدراً للفقه الحضاري والوعي "الاستراتيجي" للأمة في تدافعاتها المعاصرة مع الأمم الأخرى. ولا شك أن هذا الفقه الحضاري السنني الذي تكون السيرة النبوية مصدراً من مصادره الأصلية هو جزء من ذلك "الفقه الحي الذي يدخل على القلوب بغير استئذان"[2] وهو وصف محكم من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإشارة منه إلى أن القراءة الحرفية

(١) البوشيخي، الشاهد. "الهُدى المنهاجي في القرآن الكريم"، **مجلة حراء**، العدد (١٢)، ٢٠٠٨م.

(٢) ابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، مرجع سابق، ص٥١٨.

أوالتجزيئية لنصوص الوحي تولد أفهاماً جامدة، وتأويلات متسيبة فاسدة تقصرعن إدراك روح مقاصد الشريعة، وتكون أبعد عن فهم سنن الله التي شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يجري عليها عمران البشر واجتماعهم. ويرتبط الحديث عن السيرة النبوية مصدراً للفقه السنني بتحديد الخطوات باستثمار هذه المصدرية السننية.

خطوات استثمار السيرة مصدراً للفقه السنني:

إن تفعيل المصدرية المعرفية للسيرة النبوية في مجال سنن العمران والاجتماع البشري، والكشف عن السنن التي تضمنتها وقائعها وأحداثها، وما يرتبط بهذا التفعيل من أبعاد وضوابط وقيم وقواعد معينة قادرة على الإمساك بحركة التغير الاجتماعي والبناء العمراني الذي أحدثه المنهج النبوي، وما استتبع ذلك من تقييم وتقويم لشبكة العلاقات الاجتماعية، وإعادة بناء المجتمع والدولة والأمة المسلمة، لا بد من أن يتم هذا التفعيل والاستثمار لوقائع السيرة مصدراً للفقه السنني بناء على منهج واضح ودقيق يتجلى في الخطوات الآتية:

أ- أن يكون المرجع في تبين سنن الله في المجتمع البشري من خلال استنطاق وقائع السيرة، هو الرؤية القرآنية السننية. فهذه الرؤية القرآنية السننية وفق منهجية القرآن في الهداية هي التي تحكم منهج قراءة السيرة النبوية بمنظور المقاربة السننية العمرانية، مقاربة منهجية ومعرفية لا تقع في قراءات إسقاطية أو تأويلات متعسفة، أو اختزالات تفرغ وقائع السيرة من مضامينها التى تتكامل فيها عناصر الغيب والشهادة، والمادة والروح، والغيب والطبيعة،...

ب- النظر إلى السيرة النبوية على أنها وحدة موضوعية بنائية تجيب عن إشكالات العصر وقضايا العمران البشري، مع اعتماد منهج استقرائي يقوم على التتبع والجمع والدراسة لكل الروايات والنصوص والوقائع. ولا يخفى ما لهذه القراءة الاستقرائية الاستنطاقية الموضوعية من قدرة على إحداث وعي سنني يعاد فيه الاعتبار للقدرة

التفسيرية للسيرة النبوية في فهم ما يحكم المجتمع والتاريخ من سنن، مع تجاوز القراءة الخطية لوقائع السيرة جرياً مع منهج الحوليات.

ت- اعتماد الروايات الصحيحة، وضبط النصوص والروايات من حيث درجة الصحة والضعف، فلا يعتمد في استنباط الفقه السنني إلا على الروايات الصحيحة والحسنة. فالفقه العمراني ليس بأهون من الفقه التشريعي، فعليه مدار قيام العمران وهو في أوله وآخره لا ينفصل عن منظومة الفقه التشريعي من حيث إن غرض العمران هو تأمين تحقيق وظائف الاستخلاف والتسخير وفق مقاصد الشريعة وكلياتها، مع الأخذ بأصل عظيم هو الرؤية المعرفية السننية للقرآن الكريم في التحقق من روايات السيرة.

ث- الاستفادة من الكسب البشري في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية لا سيّما على مستوى المنهج مع الوعي بتحيزات هذه العلوم للخلفية الفلسفية الغربية. والأصل أن علماء السلف اهتموا بمجالات هذه العلوم، وإن لم يسموها باسمها المتداول اليوم، وهو ما يحمل الباحثين في هذا المجال مسؤولية كبرى في إعادة النظر في مناهج ومعارف هذه العلوم على ضوء رؤية الإسلام. وفي ارتباط مع موضوع الدراسة ينبغي أن تكون السيرة النبوية هي المهيمنة برؤيتها المعرفية وإطارها المنهجي على علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ والحضارة، وأن تكون مرجعاً في تصحيح نظرياتها ومراجعة مقولاتها والاستهداء بهديها، وهذا لا يحجز عن استثمار هذه العلوم بما يناسب طبيعة السيرة وخصائصها ورساليتها بعيداً عن الانتقائية والتلفيقية.

ج- تجاوز المنهج السردي الذي ينظر إلى السيرة من خلال وقائع تاريخية متلاحقة وأحداث زمنية مرتبة، وذلك باعتماد منهج تحليلي بنيوي موضوعي ينظر إلى السيرة على أنها وحدة نسقية تتداخل فيها البدايات مع النهايات، وتترابط فيها الأحداث وتتشابك الوقائع لإنجاز دورة حضارية جديدة وفق رسالة الإسلام الخالدة.

حـ- ارتباط مقاصد هذا المنهج التحليلي البنيوي الموضوعي بالكشف عن السنن الحاكمة للعمران البشري، والوقوف على تلك المنظومات المعرفية، والمنهجية، والقيمية، والتواصلية، التي صار وفقها الفعل النبوي لإنجاز هذا العمران، وعدم قصر النظر عند الحديث عن السيرة على الغزوات والسرايا، وكأن هذه الأخيرة هي السيرة النبوية. وللأسف فقد ضخم الجانب العسكري والحربي من سيرته ﷺ على حساب جوانب أخرى عمرانية وحضارية و"استراتيجية" حتى كادت أن تفرغ من مقاصدها وأسرارها ومعانيها التي بعث من أجلها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، على أن تلك الغزوات والسرايا لم تستغرق في مجموعها بضعة شهور مع احتساب أيام ولياليِ السفر للحرب ذهاباً وإياباً. فأين هي السنون الأخرى من تاريخ السيرة النبوية، وهو ما يستوجب استكمال صورة السيرة من خلال المصنفات الحديثية، والنظر فيها، حتى في تلك الأبواب التي لا يظن أن تكون محلاً لذكر وقائع السيرة؛ لأن كثيراً من تآليف القدماء جعل مدار السيرة النبوية على كتب المغازي والجهاد والسير.

خـ- إذا كان مرجع هذا المنهج التحليلي هو رؤية الإسلام التي لا ينبغي أن يحيد عنها في نتائجه حذراً من الوقوع في التناقض مع روح الرسالة الخاتمة، فإن من مراميه أيضاً أن ينظر في حضور السنن التي نبه إليها القرآن الكريم في المسار العمراني للسيرة النبوية، فالقرآن والسيرة يتكاملان في تقديم صورة عن الفقه السنني العمراني: رؤية ومنهجاً وتطبيقاً.

د- صياغة فقه سنني مستخلص من السيرة النبوية على شكل قواعد كلية تستبين بها أبعاده، وضوابطه، وأشكاله، ودوائره، وتأثيراته، وقوته الإنجازية الحضارية العالية، وترسم معالمه الرسالية، وهو ما سيمكن العقل المسلم من معرفة أن لكل مشكلة قانوناً، وأن لكل مرحلة سنناً، وأن التاريخ لا يتحرك فوضى أو عبثاً، وأن النهضة والتمكين للأمة الإسلامية لا يمكن أن يأتي عن طريق تحويل الدين إلى مجرد شعائر تعبدية مفصولة عن أبعادها الكونية والاجتماعية، أو قراءة السيرة قراءة سردية

تعمل على تقديم منظور تبسيطي تسطيحي، وإن كانت ليست كل قراءة سردية للسيرة كذلك. ورسول الله ﷺ أحكم صنعة السنن وبلغ فيها الغاية القصوى-لأنه نبي موحى إليه- وسخرها لمشروعه الرسالي التوحيدي فكان له النصر والفتح.

ويمكن القول مع عمر عبيد حسنة أنه "قد يكون من أبرز الخصائص، التي تجعل المنهج النبوي في التغيير والنهوض والبناء الحضاري، محلاً للاقتداء والتأسي، وتجعله أنموذجاً يحتذى، إنما هي في واقعيته وتوافقه مع فطرة الإنسان، وإنه تحقق من خلال تعامله مع السنن الجارية في الكون، ومن خلال عزمات الإنسان، بضعفه وقوته، وتذكره ونسيانه، وفطرته وغريزته، ونزوعه إلى الخير، وانحداره في الشر، واستيعاب جميع ما يتعرض له من الظروف، والأحوال، والقابليات، من الشدة والرخاء، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر، ليكون المنهج من ثم دليلاً ومرشداً، في كيفية التعامل مع الأحوال كلها، من خلال الاستطاعات المتوفرة، والظروف المحيطة، ولم يتحقق من خلال تعامله مع السنن الخارقة، الخارجة عن طاقة البشر، التي قد تسهم بالتواكل، والإلغاء، وانطفاء الفاعلية، وتؤدي إلى السلبية والإرجاء. واعتمد الزمن، وسنة الأجل، بوصفها عنصراً لازماً لإنضاج الفعل الحضاري، وتحكم بالزمن تسخيراً وإنتاجاً، بعيداً عن النظرة الدهرية والجبرية الزمانية، التي كانت من مثالب الكفر، وليس من خصائص الإيمان."[1]

فلا غرابة أن نؤكد هنا على ضرورة أن تكون السيرة النبوية أحد العوامل المركزية في تحفيز القيادات الفكرية للأمة وأصحاب مشاريع الإصلاح والإشهاد الحضاري على الاستهداء بأنوارها حتى تقف على علل الهزيمة الحضارية وأسبابها، وتستبين مواطن الإصابات الحقيقية ومكامن الخلل الخفية، وتدرك من خلال قراءة سننية للسيرة النبوية تلك السنن التي تحكم السقوط والنهوض الحضاري حتى لا يطول تطبيع جيل الأمة اليوم على الهزيمة، ولا يظل يقرأ بعض الوقائع التاريخية التي تقع هنا أو هناك في العالم

(١) ابن مبارك، **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، مرجع سابق، ص٣١، من تقديم عمر عبيد حسنة.

الإسلامي قراءة تكرس نفسية الهزيمة، وتوطن لمشاريع الإفساد في الأرض، وما ذلك إلا بسبب إيمان بعضهم ببعض من السيرة النبوية وكفرهم بالآخر، وتجزيئهم وتقطيعهم لوقائع السيرة حسب أهوائهم النفسية والاجتماعية والسياسية فيكون حينها الخزي والانتكاس، وهو عين ماحذر منه القرآن الكريم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

إن الإيمان الكامل بنبوة محمد ﷺ يقتضي من جملة ما يقتضيه الإيمان بأنه ﷺ لم يخرق سنن الله في إقامة عمران حضاري إسلامي عالمي، وأنه من الاقتداء بهديه ﷺ اعتبار هذه السنن وإعمال النظر فيها وتسخيرها، لإعادة الأمة إلى ريادتها. وبقدر ما عبرت حياة النبي ﷺ عن كفاءة عالية في التفاعل مع الواقع ومعطيات الجغرافيا وحقائق التاريخ، فإنها تتعالى على أن تحكمها جغرافية محددة أولحظة تاريخية معينة أو طبائع بشرية مخصوصة، إنها عطاء مفتوح وممتد على امتداد الزمان والمكان.

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل مشروع هو: هل وضع الرسول ﷺ سنناً للعمران البشري، أم أن سيرته هي تطبيق عملي وبرنامج ميداني للاستثمار السنني من حيث إن السنن إلهية، والبشر إنما يكتشفونها؟ وإذا كانت السنن تستقرأ عبر مراحل تاريخية طويلة لا يمكن أن يحيط بها فرد أو جماعة من الباحثين والخبراء في زمن محدود بحدود حياتهم الضيقة. فسنن العمران البشري لا يمكن اكتشافها خلال عقود أو جيل، وإنما تستقرأ عبر التاريخ وتجارب الحضارات وتستغرق حياة أمة وعمرها الحضاري بخلاف الآيات الكونية والظواهر الطبيعية التي لا يتجاوز زمان اختبارها وتجريبها إجراء خطوات علمية محدودة في الزمان. فزمان سنن العمران زمان تاريخي حضاري، أما زمان التحقق من طبيعة الظواهر المادية والكونية فهو زمان مختبري تجريبي مادي محدود في الزمان والمكان. ومن يتأمل حال الباحثين الاجتماعيين وفلاسفة التاريخ، ومؤرخي الحضارات، يدرك مدى عناء هؤلاء، ومدى صعوبة صياغة سنة من السنن

الاجتماعية صياغة علمية دقيقة، فذلك يتطلب فريقاً من الخبراء والباحثين الميدانيين، وضبطاً لمناهج البحث الاجتماعي والتاريخي، ورصداً للظاهرة، وإحصاء لتجلياتها، وملاحظة لتغيراتها، وكشفاً عن علاقاتها، واستبانة لتفاعلاتها مع ظواهر أخرى، وتحليلاً لنتائجها، وتفسيراً لمعطياتها، وقياماً بالتجارب مع توفير شروطها ولوازمها، ويتطلب الأمر وحدة في المنهج، وتحكماً في وسائله وأدواته، وتراكمات منهجية وعلمية وتجريبية تمتد عبر مئات السنين، وهذا مالم يتوافر في زمان النبي ﷺ الذي خضعت حركته في البناء والإصلاح والتدافع والحماية والاستشراف لسننية محكمة، وتحقق له النصر بإقامة عمران راشد فكان رد فعل الجاحدين التعجب والاستغراب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤-١٠٥].

فالآية تحمل "دلالة التحدي العلمي والمنهجي الصارخ، بمعنى أن الدقة والعمق اللذين تطرح بهما هذه القوانين التي قد لا تستقيم بهذا المستوى حتى لكل عالم -على حدة- في ميدان تخصصه، لا يمكن أن تستقيم لرجل أمي، لذلك ستنصرف العقول إلى التساؤل عن مصدر هذا العلم الخارق للعادة؛ إذ كيف تستقيم لشخص واحد بشكل معجز لم يسبق أو يلحق بمثله؟ ولهذا يجد المجادل لإعجاز القرآن نفسه حائراً حينما يقول القرآن عن النبي ﷺ: ﴿دَرَسْتَ﴾ لأنه على يقين أن من درس قد يتعمق في ميدان أو اثنين، أما أن يتعمق في كل الميادين وتنصاع له العبقرية فيها جميعاً على حد سواء، فهذا أمر خارق للعادة فعلاً"[1] ولكنه الوحي. ولذلك، فإن السنن التي نستقرؤها من السيرة النبوية هي سنن مسددة بالوحي ومؤيدة بالرعاية الإلهية، لذلك يتداخل فيها البعد البشري الإنساني الواقعي -المتمثل في فاعلية الإنسان وما يتمتع به من مسؤولية الإرادة والفعل- مع الفعل الإلهي المطلق والمشيئة الربانية الهادية.

(١) عاشور، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد**، مرجع سابق، ص١٢٢-١٢٣.

ولذلك يصح القول: إنه لا يمكن الإحاطة بسنن العمران البشري في سيرة شخص أو جماعة ماعدا النبي ﷺ؛ لأنه مؤيد بالوحي، فالتسديد الإلهي ضامن للعصمة، ومحقق للارتباط بالله تعالى خالق السنن مباشرة، وبما أن محمداً ﷺ نبي مرسل فهذا يدل على امتلاكه قدرات عالية وكفاءات في إدارة العلاقات الاجتماعية، وتدبير قضايا المجتمع والدولة والأمة، وإقامة عمران إنساني عالمي.

إن طبيعة النص القرآني ومنهجه في التصديق والهيمنة، وكونه هو المصدر الأول للسنن، والمشكل لوعي سنني جديد في تاريخ الإنسانية، هو الذي جعل النبي ﷺ الأقدر على تجسيد هذا الوعي عملياً بتنزيل مقتضيات الخطاب الإلهي مع تصديق كل الكشوفات البشرية في العلوم الاجتماعية والإنسانية في مجال تبين السنن الحاكمة للعمران البشري والمسددة برؤية الوحي، ليكون مهيمناً عليها؛ لأنه الحق من عند الله.

لكن القرآن الكريم لم يقدم تفاصيل السنن وفروع قواعدها بقدر ما قدم المنظومة السننية، ونبه إلى مصادر هذه السنن، وطرق استنباطها، ومواردها، وكيفيات استثمارها، وجاء الفعل النبوي والمنهج الرسالي بوصفه أقوى مصدر، وأدقه، وأوثقه، وأغناه، وأشمله -بعد القرآن الكريم-، كما جاء هذا الفعل النبوي ممارسة إنسانية استحضرت كل الأبعاد التاريخية والعقلية والوجدانية والقيمية و... مستثمرة التاريخ والجغرافيا، والرصيد التاريخي، والإرث الديني، وواقع العلاقات الاجتماعية، وشبكات التواصل الثقافي، فحققت هذه الممارسة الإنسانية نتائج باهرة على مستوى الإصلاح الحضاري وبناء العمران البشري.

ولعل فهم مسألة ختم النبوة يفيد كثيراً في فهم طبيعة هذه الرسالة وخصوصيتها في تاريخ الرسالات، لتتحول معها إلى هداية شاملة للعالمين، وكيف تتحقق هذه الهداية إن لم توفر هذه الرسالة على المستوى التطبيقي العملي معرفة سننية متكاملة لن يعود بعدها الإنسان في حاجة إلى بعث رسالي سماوي جديد. إن من بين دلالات ختم النبوة أن البشرية لم تعد بعد هذا الختم الرسالي في حاجة إلى إرشاد سماوي جديد، فقد

ختمت الرسالة بنداء افتتاح عصر المعرفة السننية، وشكلت حركة النبي ﷺ الرسالية العالمية حلقة التكامل في تاريخ النبوات وإرث الرسالات، فمثلت بذلك حركته الرسالية المنهج المتكامل والنموذج المثالي في تشييد صرح العمران البشري.

إن القراءة الاستنطاقية لوقائع السيرة النبوية مفتاحٌ للتعرف على سنن الاجتماع والعمران البشري التي يشكل إدراكها، واستنباط قواعدها، وصياغة أسسها، المدخل الأساس لإدراك مقومات وأسس التسخير ومقتضيات الاستخلاف، كما أن اعتبار السيرة النبوية مصدراً للفقه السنني يقدم لنا اقتراباً منهجياً ومعرفياً يمكننا من فهم حركة الرسالة الخاتمة في بنائها للعمران، ذلك أنه إذا كان أي حراك اجتماعي[1] أو تجديد حضاري لا يتم إلا من خلال إحكام المعرفة السننية فهماً وصياغة وتنزيلاً، فإن السيرة النبوية من حيث هي مصدر ثان من مصادر السنن هي التجربة التاريخية النموذجية التي حققت أعلى درجات الأداء الإنجازي المتميز في إحداث حراك اجتماعي وتحول حضاري على مستوى البنيات المكونة للنسق الثقافي العربي، وأنجزت إصلاحاً وتجديداً على مستوى عال من الأصالة والفعالية والاطراد.

ويمكن القول: إنه إذا كانت المعرفة بسنن الله تعالى واجباً شرعياً وضرورة حضارية، وكان القرآن الكريم مورداً أولاً من مواردها، وكانت السيرة النبوية المورد الثاني للمعرفة السننية بوصفها التطبيق العملي للفقه السنني القرآني في معالمه وأسسه الكبرى، فلا غرو أن يصير من الضروري استقراء وتتبع أحداث السيرة ووقائعها ومفرداتها، والانخراط في عملية استنطاق هذه الأحداث والوقائع والمفردات، بما يتيح استنباط فقه سنني عمراني يسعف الأمة في الخروج من أزمتها المعاصرة واسترداد ريادتها العالمية.

---

(١) حراك اجتماعي: انتقال الأفراد أو الجماعات بين المواقع الاجتماعية المختلفة. انظر:

- غدنز، أنتوني. **علم الاجتماع**، ترجمة وتقديم: فايز الصياغ، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٧٤٧.

ولا شك أن السيرة النبوية حينما نعدّها مصدراً للفقه السنني، فإن العلوم الإنسانية والاجتماعية، التي اتخذت من معرفة السنن الحاكمة للمجتمع موضوعاً لها، لا محيد لها من أن تتخذ السيرة النبوية مصدراً من مصادر بناء نظرياتها، وأنساقها العلمية، والانخراط في عملية مراجعة للنتائج التي خلصت إليها على ضوء الفقه السنني النبوي المسدد بالوحي وما تضمنه من تكامل ثنائية الغيب والمادة، والحس والعقل والوحي، الذي سيمنحها -مع القرآن الكريم- مصداقية ووجاهة علمية، ويجعلها تتجاوز كثيراً من أزماتها المعاصرة التي تتخبط فيها.

إننا حين ندعو إلى ضرورة تفعيل هذه المصدرية المعرفية والمنهجية للسيرة النبوية في ميدان السنن التي تحكم الفعل الاجتماعي وحركة التاريخ والعمران البشري، يكون القصد من هذه الدعوة هو النظر إلى تلك الهدايات النبوية التي أبصرت المستقبل برؤية سننية متكاملة ومتوازنة واهتدت إلى معرفة سنن النصر والهزيمة، وسنن السقوط والنهوض، واستدعت أخبار الأمم وتجارب الحضارات للاعتبار بها بغية تأهيل العقل المسلم بفقه سنني عملي يبصر مواطن القوة والضعف، ويفقه التحديات والفرص المتاحة، ويتعامل مع الفتن ويستشرف المستقبل ويوظف الإمكانات ويتجاوز علل الأمم الماضية.

إلا أنه مما يقتضي سياق الكلام بيانه هو أن السيرة النبوية لا تمنحنا فقط معرفة سننية بقضايا التاريخ والاجتماع والعمران، ولا تشكل، فحسب، مصدراً معرفياً نستقي منه السنن القاضية بإقامة عمران إنساني عالمي، وإنما تقدم لنا أيضاً معالم وضوابط منهجية في كيفية فهم السنن، واستثمارها، وإحكام العمل بها، وتسخيرها في مشاريع البناء والإصلاح التي تخوض معتركات الابتلاء والتداول والتدافع والتجديد، كما تسعفنا بجلاء ووضوح في فهم العلاقات بين المنظومات السننية سواء تلك المتعلقة بالاستخلاف، أم بالتسخير، أم بما ينتج عنهما وهو العمران، وتجاوز الكثير من الأخطاء على مستوى الفهم والتطبيق حينما يتعلق الأمر بثنائيات صرف فيها

العقل المسلم طاقاته الفكرية في إيجاد حلول لها مثل: السنن الخاصة والسنن العامة، الحرية والحتمية (الجبرية)، السنن والدعاء، السنن والفتن: بين حتمية أو ظنية وقوعها،...

ولذلك تمثل الكليات السننية النبوية علاجاً للمأزق الاجتماعي/الحضاري الراهن من حيث إنها قدمت للعقل المسلم أدوات الكشف عن علل العمران البشري وأسعفته في فهمها ومواجهتها بمنطق سنني متوازن ومتكامل سماته الكبرى: الواقعية والمبدئية والمشروعية والفعالية واطراد الإنجاز وسرعته ومتابعته.

إن ما سبق يفرض علينا إعادة النظر فيما كتب حول السيرة النبوية من دراسات وأبحاث وتحقيقات، وإخضاعه للتقويم والمراجعة والتصحيح في ضوء المقاربة السننية العمرانية، وهو ما سيكون موضوعنا القادم.

ثانياً: تقويم الدراسات[1] حول السيرة النبوية على ضوء قضية السنن

ظلت العناية بالسيرة النبوية تأليفاً وتحقيقاً عبر تاريخ الأمة إلى اليوم، مابين مطول ومختصر، ومنثور ومنظوم، وما بين أسلوب الإخباريين والمؤرخين والمحدثين والفقهاء، وما بين مناهج السرد التاريخي والتناول الموضوعي. وقد غطت هذه

(١) لن ندرج في حديثنا عن هذا التقييم الدراسات التي أنجزت حول السيرة بخلفية مادية أو علمانية أو استشراقية، فهذه الدراسات تنكبت المنهج العلمي وصادرت منذ البداية حقائق عقدية من صميم الرسالة الخاتمة، وكان همها هو تأويل الروايات أو عدم قبول الصحيح منها، وترجيح الضعيف والموضوع خدمة للخلفية الفكرية والأحكام الجاهزة والمسبقة التي انطلق منها أصحابها، وإسقاطاً لمناهج غربية مادية أثبتت عجزها اليوم في حقل الدراسات الاجتماعية والتاريخية، بل عملت على تأزيم هذا الحقل مما دفع بعلماء الغرب إلى إعادة النظر في هذه المناهج لتجاوز الأزمة. وهؤلاء هم الذين عناهم الصادق عرجون بقوله:"وكان في أغمار المسلمين سماعون لهم، عباد لصنم جحودهم، فركعوا سجداً بين أيديهم، وسجدوا أذلة تحت أقدامهم، تباهياً بالعصرية، وتفاخراً بالتجديد، وتظاهراً بحرية التفكير... وفتن بهم ذوو الثقافة الفجة والمعرفة الضحلة، فتشابهت قلوبهم وتواءمت أفكارهم، وأعرضوا عن بينات التاريخ." انظر:

- عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص١٩.

المؤلفات جوانب عظيمة من سيرته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بدءاً من مولده ومنشئه، ومبعثه وما كان من أمر نزول الوحي، والدعوة، والهجرة، والغزوات، والسرايا، والوفود، وذكر شمائله، وخصائصه، ومعجزاته، ومعرفة أسماء ولده وعمومته وأزواجه، ماحصل معه من الغنىٰ والتنوع ما لم يكتب لسيرة شخص عبر التاريخ، وأي شخص يمكن أن يقارب فضل رسول الله ﷺ في إخراج العالم من ظلام الوثنية إلىٰ نور التوحيد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن ضلال الفكر وسفه الإحساس وعبث الفعل إلىٰ هداية الدين وسمو الإحساس وقصدية الفعل.

وقد أبدع العلماء والباحثون -قديماً وحديثاً- في وضع مناهج لحفظ السيرة النبوية، وتمييز الصحيح من الروايات عن الضعيف والموضوع منها، وإخضاعها للنقد الحديثي سنداً ومتناً؛ لأن كثيراً ممن ألف في السيرة -سواء قصدها بإفراد كتاب أم أورد ما بلغه في كتاب جامع، وسواء تعلق الأمر بكتابات المؤرخين (أمثال الواقدي والبلاذري)، أم المحدثين (أصحاب السنن والمجاميع والمسانيد ويستثنىٰ من ذلك الصحيحان)، أم من جمع بين الصفتين معاً (أمثال ابن إسحاق والطبري) لم يشترطوا في الروايات الصحة، ولم تسلم رواياتهم وأسانيدهم من طعن- إنما اهتموا بالجمع والتصنيف تاركين لمن جاء بعدهم التمحيص والنظر، وإن كان النقد الحديثي للمتون لم يظفر بنفس الجهد المبذول في نقد الأسانيد، إلا ما ظهر من إشراقات بارزة لدىٰ ابن حزم (توفي: ٤٥٦هـ) في "جوامع السيرة"، وابن القيم (توفي: ٧٥١هـ) في "زاد المعاد في هدي خير العباد"، وابن كثير (توفي: ٧٧٤هـ) في "البداية والنهاية"، والذهبي (توفي: ٧٤٨هـ) في "تاريخ الإسلام"، وابن حجر (توفي: ٨٥٢هـ) في "فتح الباري" وتحديداً شرحه لـ"كتاب المغازي" و"مناقب الأنصار" و"الجهاد والسير" وغيرها مما ترجم به البخاري أبواب جامعه الصحيح. ولا غرو أن يكون "الحديث في سيرته ﷺ عريض الجوانب، طويل المدىٰ، واسع الآفاق، عميق المسقىٰ، غزير المادة، تسابقت الأقلام في حلبته، وتنافست الأفكار في ديباجته، فالقدماء من المؤرخين والرواة والعلماء حدثوا

ورووا وكتبوا ما تناهت إليهم به الأحداث والوقائع من الحقائق، كما كتبوا غير ذلك من الأقاصيص التي لا تثبت للنقد والتمحيص. وقد تعددت مناحيهم، واختلفت طرائقهم، وتباينت مذاهبهم، وجمعوا في دواوينهم كثيراً مما ناء به كاهل التاريخ."[1]

ولعل نقد متون روايات السيرة وما نتج عنه من وضع وإعمال لقواعد الموازنة والجمع والترجيح والتعارض، وما أفرزه من عمق العقلية النقدية الفذة لدى هؤلاء وأمثالهم هو الذي سيفضي إلى ظهور منهج قوي في الاستنباط من السيرة النبوية واستخلاص الدروس والعبر منها بصورة بارزة تتجاوز استخراج الأحكام الفقهية المتعلقة بالعبادات فقط، وإلا فمنذ القرن الأول والسيرة النبوية مرجع في الحكم والاستنباط لدى علماء الأمة ومجتهديها. وقد حكم هذه القراءات الاستنباطية للسيرة النبوية مناهج وخلفيات منهجية ومعرفية متعددة ومتنوعة ذات أبعاد مختلفة، ومستويات في دقة الفهم وجودة الاستدلال متباينة. واستمر هذا النمط في الكتابة في السيرة النبوية مع طغيان استثمار مروياتها في الاستدلال الفقهي، أو في بيان الهدي النبوي في العبادات والمعاملات والأخلاق بما يناسب اختيارات المذهب الفقهي الذي ينتمي إليه المؤلف، مع السعي نحو كتابة موسوعية عن السيرة تقدم صورة كاملة عن شخصيته ﷺ كما فعل الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (توفي: ٩٤٢هـ) في "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد،"[2] وأيضاً العلامة الحكيم السيد سليمان الندوي (توفي: ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) والعلامة المؤرخ النقاد شبلي النعماني (توفي: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) في موسوعتهما" سيرة النبي ﷺ."[3]

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٩.

(٢) الصالحي، محمد بن يوسف الشامي. **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ولجنة إحياء التراث الإسلامي، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ويقع في ثلاثة عشر جزءاً.

(٣) أعظم ما اشتهر به السيد الندوي، وقد بدأ شيخه شبلي النعماني في تأليفه فأنهى الجزء الأول والثاني، وتوفاه الله تعالى قبل أن يتمه، فانبرى لهذه المهمة تلميذه العلامة الندوي وانفرد بتأليف بقية أجزائه.

وقد صارت كتابات المعاصرين في السيرة النبوية من ذوي الرؤية الإسلامية على مناهج المحدثين في تمحيص الروايات مثل كتاب "السيرة النبوية الصحيحة" لأكرم ضياء العمري (ولد: ١٩٤٢م)، وكتاب "مغازي موسى بن عقبة" لأستاذنا أبي مالك محمد باقشيش، وعلى مناهج الفقهاء مثل "فقه السيرة" لمحمد سعيد رمضان البوطي (توفي: ٢٠١٣م)، وعلى مناهج المؤرخين مثل كتاب "سيرة الرسول ﷺ: صور مقتبسة من القرآن الكريم" لمحمد عزة دروزة (توفي: ١٤٠٤هـ). كما برزت اتجاهات معاصرة في كتابة السيرة النبوية وأخص بالذكر الاتجاه التربوي والتعليمي، مثل كتاب"الرسول ﷺ" لسعيد حوى (توفي: ١٤٠٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتاب"المنهج التربوي في السيرة النبوية" لمنير الغضبان، وكتاب "الرسول المعلم" لعبد الفتاح أبي غدة، والاتجاه الحركي التنظيمي، مثل كتاب "التفسير الحركي للسيرة النبوية" لمنير الغضبان، والاتجاه الموضوعي، مثل كتاب "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، و"الرسول القائد" لمحمود شيت خطاب (توفي: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م). ويمكن القول أن "ما كتب وما يكتب عن رسالة محمد ﷺ في شمولها تشريعاً وهدياً، وعمومها زماناً ومكاناً، وأعصراً وأجيالاً، وفي خلودها بمعانيها وحقائقها، وأنظمة الحياة في تقنينها وأحكامها، وحكمها ودعائم قيمها الروحية، وأسلوبها في التعبير عن مقاصدها وأهدافها، ووسائلها، وطرائق منهجها في التوجيه والإرشاد لم يسجل إلا نقطة في خط الدراسة والبحث... لم يأت ولن يأتي إلا على بعض معالم هدايته في رسالته، وإلا على بعض خصائصه في إنسانيته، وما حباه الله به من الكمالات البشرية؛ لأنه اختاره رسولاً إلى الناس كافة في الأزمنة والأمكنة والأحوال كافة."[1]

ولعل تقويماً أولياً لكثير مما كتب عن سيرة رسول الله ﷺ قد أمكننا من تسجيل الملاحظات الآتية:

---

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٧.

- اعتماد كثير من الدراسات والكتابات على الضعيف في استنباط قضايا كبرى، بل يتم إيراد الروايات والوقائع دون الحكم على متونها وأسانيدها بالصحة أو الضعف.

- وقوع عدد من الدراسات التي رامت منهج تحليل الوقائع والاستنباط منها في إسقاطات لرؤى تنظيمية وتربوية وفكرية، فتعسفت في التأويل وفصلت الوقائع عن سياقاتها المتعددة، وأفضى بها ذلك إلى اعتماد نظرة تجزيئية اختزالية لا تعتمد المقاربة المنهجية المستوعبة لكل الوقائع والأحداث بهدف تكوين رؤية واضحة المعالم عن قضية من القضايا. "ذلك أن غياب الرؤية الشاملة للمنهج النبوي، وعدم فقه مقاصد التعامل مع الحالات المتنوعة، من الواقع، وأسباب التركيز عليها، أدى ببعض المفكرين إلى اختلال في شمولية الرؤية، وضبط النسب، وبروز فرق خارجة، ونتوءات فكرية، لا تتفق مع توازن وشمولية المنهج النبوي... أخذت بعض الجزئيات وضخمتها، وحاولت المرابطة من ورائها، وتعميمها على المنهج كله، فاضطربت الأولويات، واهتزت النسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي لا المنهجي، وأصبحت القواعد والأصول المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، هي المعيار لتفسير النص والتحكم بمقاصده، وهو مالم يعرفه تنزيل الإسلام الأنموذجي في خير القرون."[1]

- تكرار كثير من الدراسات والأبحاث لموضوعات بعينها، وأفكار واستنتاجات توصلت إليها دراسات سابقة دون أدنى محاولة للمراجعة، وتحول الأمر وكأنه "تسويد الورق، والتحلي بحلية السرق"[2] على حد تعبير القاضي أبي

(١) ابن مبارك، **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، مرجع سابق، ص٢٣، من تقديم عمر عبيد حسنة.

(٢) ابن العربي، محمد بن عبد الله الأندلسي. **عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي**، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت.)، ج١، ص٤.

بكر بن العربي المعافري (توفي: ٥٤٣هـ).

- ضمور المدخل السنني في مقاربة وقائع السيرة النبوية وعدم رؤية أحداثها وفق نظر كلي شمولي متوازن، في مقابل ذلك نجد دراسات في فقه السيرة بمداخل تربوية أو حركية أو جهادية أو عسكرية.

وإذا بذل لحد الآن جهد علمي مقدر في نقد مرويات السيرة النبوية وتوثيقها ودراستها وفق منهج المحدثين، مع جمع الروايات واستقرائها من كتب السنن والمسانيد والمعاجم والمصنفات والمستدركات والمستخرجات، فإن القيام بدراسات تحليلية حسب أكرم ضياء العمري "هو الجانب الذي ما زال بحاجة إلى عناية كبيرة من قبل الكتاب المتمرسين وأصحاب الأقلام الراسخين والمفكرين الناضجين وذلك خدمة للسيرة النبوية وتعميقاً للمعاني السامية التي تحتاجها الأجيال الصاعدة"[(١)] ولعل كل من انتصب للكتابة في السيرة النبوية من جانب تخريج مروياتها وأخبارها ودراسة أسانيدها وتحقيق المخطوطات التراثية منها يجهد نفسه في بيان أهمية ما يقوم به من دراسة علمية تبعث تراث الأمة وتحفظه من الضياع، وأن هذا من العلم النافع.

لكن تحقيق مخطوط لا سيّما حينما يتعلق الأمر برسالة علمية جامعية إذا لم يستوف شروطاً علمية ومنهجية وحضارية -من بينها قدرة ذلك المخطوط على حل إشكالات، أو تقديم إجابات، أو استكمال صورة السيرة النبوية بوجه لم يسبق إليه...- لا يمكن أن تصرف فيه الجهود والأوقات والأموال بمجرد دعوى حفظه من الضياع. ثم إن التعلق بالقول أن هذا من العلم النافع فتحصيل حاصل؛ إذ كل علم شرعي هو علم نافع، لكن الأمر ينبغي أن يتعدى ذلك نحو الحديث عن العلم النافع الذي ينتفع به، فما لم تستبن بعد للباحث وجوه الانتفاع من بحثه، ومواطن تحصيله

---

(١) العمري، أكرم ضياء. **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، الرياض: مكتبة العبيكان، ط٦، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ج١، ص٢٤.

على مستوى الفرد والمجتمع والدولة والأمة، فلا ينبغي له أن يلتفت إليه. ولعمري هي عقلية منهجية سادت عند المتقدمين من المحققين من أهل العلم فانتفعت الأمة بما كتبوا انتفاعاً مستديماً إلى يومنا هذا. والحديث النبوي الشريف ركز هذا المعنى في وجدان أفراد الأمة ليعملوا به ويركنوا إليه، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له."[1]

ولا يمكن بحال من الأحوال أن تظل السيرة النبوية مجرد خبر من التاريخ، أو تحقيق لمخطوط في التراث، أو دراسة وتخريج لمرويات -على أهمية ذلك وخطورته، وتقدير جهود العلماء والباحثين في ميدان التحقيق ودراسة المرويات- دون استحضار مستجدات العصر ونوازله ... وتراكمات العلوم والمعارف وتطور المناهج. وقد عبر أكرم ضياء العمري عن أسفه لعدم تجدد الدراسات التحليلية للسيرة النبوية، وعدم استفادتها من مناهج العصر ومعطياته العلمية بقوله: "ويكفي أن القارئ لدراسة حديثة في السيرة لا يكاد يحس فرقاً مهماً بينها وبين كتاب سيرة ابن هشام أو زاد المعاد على تباين أسلوب ومنهج الكتابين، رغم التطور الهائل في الدراسات الاجتماعية في العصر الحديث، وما تقدمه العلوم الحديثة من معطيات ضخمة تخدم الدراسات الاجتماعية، وللأسف فإننا نعيش على حافة العالم الحديث ولم نجرؤ على اقتحامه، لنفيد من معطياته الثرية المتنوعة، مع أن ما ورثناه من أسلافنا في حقل التأليف التاريخي أعظم بكثير مما ورثه المؤرخون الغربيون من أسلافهم."[2]

إن المهمة الحضارية الكبرى التي تفرض نفسها اليوم في مجال السيرة النبوية تتعلق

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ج٣، ص١٢٥٥، حديث رقم: (١٦٣١).

(٢) العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١٤.

أساساً بتحقيق درجة عالية من التوازن والتكامل المنهجي والمعرفي داخل الكتابة العلمية الأكاديمية الرصينة المتخصصة في السيرة النبوية. ذلك أن جوهر الإشكال القائم في كثير من الدراسات والتآليف في السيرة النبوية يكمن في اضطراب مناهج القراءة والفهم، وخلل في الاستنباط والاستلهام الوظيفي أوالتطبيقي للسيرة النبوية في واقع الحياة، بل إن إشكالاً آخر يتولد عن ما سبق هو عدم رؤية السيرة النبوية مصدراً لإصلاح مناهج النظر والتحليل، وبناء المعرفة، فالسيرة النبوية هي نفسها تقدم منهجاً للفهم، والقراءة والتحليل، والمراجعة، والبناء، والاستشراف، وأي منهج لا يراعي خصوصية السيرة النبوية يكون عاجزاً عن كشف أسرارها وإدراك معانيها والمضي بها نحو التأسي المنهجي المقاصدي السنني.

ويقدم أكرم ضياء العمري تفسيراً لضعف المنهج التحليلي لمرويات السيرة النبوية، ويرجع هذا الضعف لأسباب منهجية وتصورية غيبت -إلا في النادر- الرؤية الكلية السننية التي قامت عليها الحركة النبوية، ولم تستصحب معها في الغالب -وهي تقرأ وقائع السيرة- الرؤية الكونية التوحيدية القرآنية في فهم حركة التاريخ وسنن العمران البشري، متأسفاً على عدم استثمار مناهج ومعارف الآخر في فهم السيرة النبوية كما وقع في تاريخ الأمة مع علوم أخرى دون أن يناقض ذلك المعتقد الإيماني والتصور الإسلامي، فيقول: "إن التحليل للروايات والتعامل معها يبدو أكثر قصوراً؛ بسبب النظرة التجزيئية للقضايا، والسطحية في التعامل مع الروايات، وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ ودور الفرد والجماعة والعلاقات الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية والربط بين المقدمات والنتائج، فضلاً على أن الكتب التاريخية القديمة لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور الكلي بسبب اعتمادها على سرد الروايات فقط؛ إذ قلما يشير المؤرخ الإسلامي القديم للسنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ رغم أن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح. بل إن أحداً من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة

القرآنية للتاريخ، وتقديم الوقائع والتطبيقات والشواهد التاريخية عليها بشكل نظريات كلية حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته، رغم أن المفكرين المسلمين تعاملوا مع الفلسفة والمنطق منذ القرون الأولى، وأفادوا منها في بناء علوم اللغة وأصول الفقه بوضوح وتصرفوا في ذلك بعقليتهم اليقظة التي تنفي ما يناقض المعتقد الإيماني والتصور الإسلامي، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وكان نجاحهم في تخطي التجربة يرتبط بمدى وضوح العقيدة وصفائها في عقولهم."[1]

لكن كيف أمكن لمجموع الدراسات والأبحاث أن تنصرف عن الكشف عن المخزون السنني داخل السيرة النبوية؟ أليست سنن العمران البشري المستنبطة من السيرة النبوية هي بمثابة قواعد إبراهيم؟

إن المطلوب اليوم هو بعث الفعالية في أصالة معطيات الحركة النبوية بالقيام بدراسات علمية تكاملية تستثمر هذه المعطيات في تقديم إجابات وحلول لمشكلات الأمة الحضارية، لكن هذه الدراسات "لا تؤتي ثمارها المرجوة بأصالة وفعالية واطراد، إلا عبر عملية تجهيز منهجي موضوعي متكامل، يجردها من خصوصيات الزمان والمكان، ويحررها من ملابسات وعوارض الأحوال... التي تحكمت في "دوراتها الإنجازية" النموذجية السابقة، ليصلها بخصوصيات الزمان والمكان المعاصرين، ويربطها بملابسات وعوارض الأحوال القائمة أو الراهنة، وصل احتكام إليها لا وصل تحكم فيها، وربط استثمار مقاصدي موضوعي منضبط، لا ربط اتباعية وتيرية آلية متعسفة، أو انتقائية تلفيقية مميعة! فالتجهيز المنهجي المتكامل للمادة المعرفية للقرآن والسنة والسيرة... تفرضه طبيعة ومكونات "الدورة الإنجازية" للفعل البشري، التي يجب أن تستوعب المقاصد والغايات المحددة من قبل النص الشرعي، كما تستوعب أوضاع المكلفين وحاجاتهم الآنية، التي تفرضها عليهم تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد؛ في عصرهم، وبيئتهم، وظروفهم... كأفراد وجماعات

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٤-١٥.

ومجتمعات، ثم يمتد الاستيعاب إلى الآليات المنهجية والإمكانية المتاحة للإنجاز، لينتهي أخيراً باستيعاب مآلات "الدورة الإنجازية" للفعل، وشروط المحافظة على منجزاته بعد ذلك."[1]

وقبل أن نختم الحديث في هذا الموضوع المتعلق بتقويم الدراسات حول السيرة النبوية في ضوء قضية السنن يجدر بنا أن نشير إلى بعض الأعلام الذين مثلت كتاباتهم تأسيساً للدراسة السننية للسيرة النبوية. إلا أننا لم نفرد مدرسة المنار بكلام خاص هنا لإشارتنا السابقة إلى جهودها العلمية في ميدان الكشف عن السنن.

١- حسن البنا يرث الفقه السنني من مدرسة المنار ويحييه في الأمة منتصف القرن الرابع عشر الهجري:

يعد الإمام الشهيد حسن البنا (توفي: ١٩٤٩م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أعلام الدعوة الإسلامية المعاصرة ممن جدد فهم الدين والعمل به. وقد ورث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإمام محمد عبده ورشيد رضا الدعوة إلى فقه السنن، حيث جعل من فقه السنن واستثمارها وتسخيرها منطلقاً لمشروعه الحضاري، وجسد ذلك في أقواله وتحركاته التربوية والدعوية والتنظيمية، وقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المؤتمر الخامس لجماعة الإخوان: "لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها، وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر. وما هي منكم ببعيد"[2] وعليه، يرى البنا أن منهجية التعامل مع السنن، تتطلب العناصر المحددة التالية:

أ- عدم المصادمة: ذلك أن سنن الله غلابة قاضية حاكمة.

ب- المغالبة: لا تعني عدم المصادمة الركون والاستسلام، بل هي دعوة إلى مغالبة السنن.

---

(١) برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق، ص١١٠.

(٢) البنا، حسن. **مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**، "رسالة المؤتمر الخامس"، بيروت: المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، ط٢، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

ت- الاستثمار: إن استثمار الميزانية التسخيرية والاستخلافية للسنن وجه من أوجه مغالبتها.

ث- التحويل: وهو فعل من فقه منطق السنن، فإذا كان السنن ثابتة لا تتحول لكن بالإمكان تحويل اتجاهها وتيارها نحو آفاق مخصوصة.

ج- مدافعة بعضها ببعض: المدافعة صورة من صور تحويل تيار السنن حيث يستعان ببعضها على الآخر.

ح- النظر الكلي المقارن الذي يعمل على مقارنة الوقائع، وربط الجزئيات بالكليات بمنهج استقرائي تحليلي تعليلي.

وقد تضمنت كثير من أحاديث البنا وخطبه وكتاباته إشارات إلى مسألة السنن، وتعلق النصر بها مستدلاً في ذلك بوقائع من السيرة النبوية.

٢- محمد الصادق عرجون يضع اللبنة الأولى:

يعد الشيخ محمد الصادق ابراهيم عرجون (توفي: ١٩٨٠م) أول من ألف، بحسب اطلاعنا، في المكتبة الإسلامية كتاباً يحمل عنوان "سنن الله في المجتمع من خلال القرآن"، إسهاماً منه في تثبيت دعائم وقواعد فقه السنن الإلهية بعدما تلقى تلك الإشارات الكبرى من الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشهيد سيد قطب. والذي يقرأ كتابات الشيخ عرجون يقف على الوعي السنني المتكامل الذي تمتع به، وهو يغوص في قضايا قرآنية وحديثية وفقهية وتاريخية، من ذلك رباعيته الماتعة بعنوان: "محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة؛ بحث وتحقيق". وقد وظف رَحِمَهُ ٱللَّهُ منظور القرآن للسنن في قراءة السيرة النبوية وتمحيص مروياتها، منطلقاً من منهجية في البحث تميز بين سنن الله العامة والخاصة،[١] وأن لكل من هذه السنن قوانين وضوابط،[٢] مبرزاً أن ما عرف من

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١٠٥.

سنن الحياة تافه قليل إلى جانب ما لم يعرف،[١] وأن السنن العامة تندرج ضمن معروف العقل ومألوف العادة بخلاف السنن الخاصة،[٢] مفسراً كثيراً من وقائع السيرة وفق هذا التمييز مثل: حادثة شق الصدر التي هي من السنن الخاصة التي تخرق متعارف العقول، وإن كان لا ينكر العقل حدوثها؛ لأنه دائب البحث في أسرار الكون،[٣] مبيناً بعض السنن مثل: سنة الاصطفاء،[٤] وسنة الابتلاء، وسنة التدافع... وقد أعمل المنهج السنني الذي يجمع بين قراءة الكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون) في الرد على بعض اختيارات وترجيحات ابن حجر، وابن القيم، وابن كثير، والنووي (توفي: ٦٧٦هـ)، وابن عبد البر وغيرهم، منوهاً في أحايين أخرى بنظراتهم واستنباطاتهم.

٣- جمهرة من الباحثين يلتقطون الإشارات ولم يفردوا في دراسة السيرة مؤلفاً خاصاً في موضوع السنن:

من هؤلاء عماد الدين خليل في كتابه "دراسة في السيرة"، حيث لم يلتزم الخط الزمني لأحداث السيرة، وإنما قسمها إلى وحدات متجانسة، ويقف عند كل وحدة بواقعها، متبنياً مقاربة من دوائر ثلاث: دائرة الإنسان، ودائرة الدولة، ودائرة الحضارة، فيستنبط من كل واحدة منها الخلاصات والضوابط والتأويلات لعوامل ظهور الإسلام ودولته. وقد حاول أن يقرأ أحداث السيرة في الأربعين سنة الأولى بما يتوافق مع المنظور السنني، ومن البعثة إلى الوفاة من حيث هي تجسيد لسنن الابتلاء والتداول والتدافع والبناء. وقد استدل عماد الدين خليل كثيراً على سنة التداول (المداولة)[٥] بسيرة رسول الله ﷺ منذ ولادته إلى وفاته مروراً بالدعوة السرية، ثم

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١١٣.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٣٧-١٣٨.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٥٣.

(٥) الغزاوي، سعيد. **المداولة في أعمال عماد الدين خليل: دراسة في التنظير والإبداع**، سلسلة الرسائل الجامعية (٣٢)، هرندن والدار البيضاء: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومطبعة النجاح، ط١، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

العلنية، وبالهجرة وبناء الدولة والصراع مع الوثنية واليهودية وحركة النفاق في المجتمع المدني. كما أن ثمة إشارات متناثرة هنا وهناك في كتابات منير الغضبان، وسعيد حوى، ومحمد الغزالي، ورمضان البوطي... لكنهم انشغلوا كثيراً بالحديث عن سنة التداول والابتلاء، وأغفلوا ذكر بعض السنن واكتفوا في بعض الأحيان بإشارات سريعة إلى بعضها، كما أن الكتابة الأدبية أو الطابع الحركي أو الفقهي قد طغى أحياناً على هذه الكتابات، على أن صنيع هؤلاء لا ينكر، وقدمهم الراسخة فيما كتبوا لا تجحد، فلهم ولغيرهم ممن تقدموا فضل السبق إلى تلك الإشارات والتنبيهات.

ولا يمكن بحال إغفال الدور المتميز لكتابات المفكر الجزائري مالك بن نبي وهو يحلل مشكلات الحضارة وشروط النهضة، مقدماً شواهد كثيرة من التجارب التاريخية الإنسانية ومن الهدي النبوي العظيم. وقد أسهمت كتاباته في إعادة تشكيل العقل المسلم المعاصر، وأنتجت جيلاً من المفكرين والكتاب والمثقفين والدعاة كان لهم عظيم الأثر في صياغة مشاريع النهوض والإصلاح في العالم الإسلامي. وقد تأثر فيمن تأثر بمالك بن نبي المفكر والداعية عمر عبيد حسنة الذي أسهم هو أيضاً بمقدماته العلمية الرصينة لسلسلة كتب فصلية تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية المشهورة بـ"كتاب الأمة"، وأيضاً إسهامه وإشرافه على ركن"أين الخلل؟" في مجلة "الأمة" القطرية، وهو ركن أسهم في تعميق النقاش حول الوعي السنني وتجديده.

٤- الطيب برغوث والتجهيز المتكامل والمتوازن للمقاربة السننية في قراءة السيرة النبوية:

حاول الطيب برغوث من خلال رؤيته ومقاربته المنهجية والمعرفية المتكاملة والأصيلة (تستمد أصالتها من الوحي) إعادة قراءة السيرة النبوية قراءة سُننية شمولية، بهدف استخراج سنن الإصلاح والبناء الحضاري المستوعب للشرع والواقع ومتطلبات الفعل الحضاري المتكامل، وذلك لما لاحظه من ضمور في الدراسات السننية للسيرة النبوية رغم التعدد الخصب للرؤى والمداخل المعرفية التي سعت لمقاربة السيرة النبوية.

وقد عدّ برغوث نفسه امتداداً لما يسميه بـ""المدرسة السننية المقاصدية التكاملية" في الفكر والحركة الإسلاميين الحديثين خاصة، وفي الخبرة الثقافية والحضارية الإسلامية بصفة عامة"[1] وفي هذا الإطار قدم الطيب برغوث سلسلة من الكتابات الرصينة سعى فيها إلى أن تكون السيرة النبوية أو ما يصطلح عليه هو بـ"حركة النبي ﷺ في الدعوة والإصلاح، والبناء، والحماية، والمواجهة، والتقويم، والاستشراف، مصدراً أساسياً يسمح لنا -من خلال إتقان المداخل المنهجية والمعرفية- بصناعة الفعالية الحضارية من منظور سنني وذلك في اتجاه حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية"[2] ويرى الطيب برغوث أنه على القائمين على العمل الإسلامي ومشاريع الإصلاح والبناء الحضاري الاستفادة من المنهج النبوي، ومن آفاقه "السننية" الكبرى، وخطواته المنهجية الكلية الثابتة التي حصرها في دائرة العلاقة بالمنظومات السننية الكونية الكلية الأربعة التي تحكم حركة الاستخلاف، ودائرة العلاقة بثوابت وأصول الكليات السننية العامة التي تحكم حركة الإنجاز العملي، واضعاً شروط الاستفادة من المنهج النبوي في القدوة والدعوة والبناء[3] التي تمثل نتائج دراسته حول منهج النبي ﷺ[4]

---

(١) برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، ص٢٨٦.

(٢) من المفيد أن نقدم هنا تعريف الطيب برغوث للفعالية الاجتماعية، لنقف على حجم وقيمة العمل الذي يسعى إليه وهو يعيد قراءة السيرة النبوية، يقول: "الفعالية، كما نرى، تعني؛ امتلاك القدرة الفكرية والمنهجية والتنفيذية المتجددة للتأثير الإيجابي المطرد في عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعوالم العلاقات الاجتماعية داخلياً وخارجياً... من خلال الحركة التنفيذية الهادفة المتقنة المشروعة، المؤسسة على فقه تخطيطي عالي، وعلى فقه تنسيقي متقن، وعلى فقه متابعة دائبة، وعلى فقه تقويمي مستمر، مع القدرة على الاقتصاد في الجهد، والقدرة على سرعة الإنجاز، والقدرة على حماية دائمة للمنجز الاجتماعي الكلي، وتعزيز احتياطاته ومدخراته الاستراتيجية." انظر:

- برغوث، **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، مرجع سابق، ص١٢-١٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر الفصلين الأول والثاني من:

- برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق.

(٤) برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال المرحلة المكية**، مرجع سابق.

أهم مفاصله الأساسية. وقد تلت هذه الدراسة مؤلفات أخرى للطيب برغوث أكسبت كتاباته عمقاً منهجياً متيناً مثل كتابه "إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية"، وكتاب "الفعالية الحضارية والثقافة السننية"،... مؤكداً على أن "من يدرس بعمق الحركة الرسالية للأنبياء عبر التاريخ، يجدها كلها محاولة منهجية متناسقة وممتدة، لتأسيس وعي الإنسان "بدورته الوجودية" من جهة، وبناء وعيه "بميزانية التسخير" التي وضعت بين يديه لإنجاز مهمته الاستخلافية في الأرض من جهة أخرى، والتي امتدت لتستوعب قطاع سنن الآفاق، وقطاع سنن الأنفس، وقطاع سنن الهداية، وقطاع سنن التأييد، التي لا يغني أي منها عن الآخر بأي حال من الأحوال، ولا يستقل بتحقيق الأصالة والفعالية والاطرادية في "الدورة الإنجازية" للفعل أو الموقف الاستخلافي البشري!"[1]

ولعل المديونية الحضارية ستظل باهظة وجد مرتفعة بحكم القصور الحاصل في استثمار الميزانية التسخيرية والاستخلافية لوقائع السيرة النبوية الذي يفضي وفق سنن الله إلى تحقق العمران الإسلامي، ولذلك لا غرابة أن يعبر عبيد حسنة عن وعيه بهذا القصور على مستوى دراسات علمية للسيرة النبوية تستلهم منها فقه سنن البناء والحضاري، فحسب رأيه "ما تزال الدراسات فيها ضنينة، لأن معظم الدراسات، تمركزت حول منهج الحفظ والنقل، واستنباط الحكم التشريعي، أما أن يكون المنهج النبوي مصدراً للمعرفة بشكل عام، ومنهجاً للتغيير والبناء الحضاري، فلا تزال الحاجة إليه قائمة وماسة."[2]

إن تقويم الدراسات حول السيرة النبوية من وجهة نظر المقاربة السننية لا يبتغي استقراء كل تلك الدراسات والأبحاث التي أنجزت عن السيرة النبوية ولا نرغب

---

(١) برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، ص٤٦.

(٢) ابن مبارك، **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، مرجع سابق، ص٣٦، من تقديم عمر عبيد حسنة.

أبداً في بيان عيوبها ونقائصها، فكل منها أسهم بما توافر لديه من عدة منهجية ومعرفية في تقديم قراءة للسيرة النبوية، وإنما كان القصد التنبيه على أن دخول الأمة في عالم جديد يقتضي منها إعادة قراءة للسيرة النبوية وتجديد التأليف فيها، وتقديم الحلول في ضوئها، وتجديد الاقتداء به في عزائم الأمور ونوازل العصر الكبرى وفتنه السياسية وأزماته الاقتصادية، لكن للأسف فـ"إن الكثير من الكتابات في السيرة، التي بين أيدينا، إذا نزعنا عنها تاريخ الطبعة واسم المؤلف؛ أي إذا نزعنا غلاف الكتاب، لا يمكن أن نعرف لأي عصر تنتسب، وأي مجتمع تخاطب، وفي أي زمن صدرت، مالم ننظر في اسم المؤلف وتاريخ الطبعة ومكان الصدور"[1] وإنما كان سعينا هنا التنبيه إلى ضخامة الميزانية التاريخية للأفكار[2] التي حكمت عدداً لا يستهان به من القراءات والدراسات المعاصرة للسيرة النبوية حين أغفلت التركيز على الفقه العمراني السنني، ورسخت في العقول والأذهان صورة نمطية عن سيرة الرسول ﷺ، وارتفعت بسبب ذلك المديونية الحضارية لذلك الاستثمار الفاقد لعنصر الفعالية العمرانية في تثوير[3] السيرة النبوية.

---

(١) أحمد، إبراهيم علي محمد. **في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية**، سلسلة كتاب الأمة (٥٤)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٧هـ، ص٢٢-٢٣.

(٢) وظف مالك بن نبي هذا المعنى في سياق آخر. انظر:

- ابن نبي، مالك. **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر، ط١، ١٩٨٨م، ص١٤٨.

(٣) دعا ابن مسعود رضي الله عنه إلى تثوير القرآن فقال رضي الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن." وهو لنا إمام في تثوير السيرة النبوية، وهو تثوير يرتبط بالأصول، ولا يدعي التفلت من الضوابط التي أقرها المحققون من أهل النظر والورع. فالنظر التثويري التجديدي لا يصح من متسيب غير منتسب لأهل العلم والإيمان، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل العلم والورع. انظر:

- الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٤.

ثالثاً: منهج تجديد درس السيرة النبوية: ضوابط ومنطلقات

لا يخرج مفهوم التجديد[1] وفق الرؤية المعرفية الإسلامية، وأسسها المنهجية في سياق حديثنا عن المعاني الآتية:

- نفي ما علق بالسيرة من أخبار ومرويات موضوعة وضعيفة، وهو ما يعني الاجتهاد في تحري الأسانيد والمتون الصحيحة باعتماد منهج النقد الحديثي والأصولي، مع الاستفادة من المناهج المعاصرة في النقد التاريخي بما يتناسب مع التصور الإسلامي.
- نفي انغلاقية الاقتداء وحرفية التأسي اللذين يحصران مفهوم القدوة والأسوة في نطاق ضيق بما يتعارض مع واقعية الاتباع والارتباط بالمنهج النبوي.
- القدرة على التمييز بين مقامات التصرفات النبوية سواء ما تعلق منها بالتبليغ، أم بالإمامة، أم بالقضاء، أم بالفتيا، مع ضبط محل الاقتداء، وما يحتف به من القرائن والأحوال والسياقات. وهذا التمييز يساعد على إدراك ما كان ملزماً وما ليس كذلك، وما كان عاماً أو خاصاً، وما ارتبط بمصلحة أو شخص أو وقت أو حال.
- إحياء المعاني الحضارية الكبرى للسيرة النبوية، وإبراز هداياتها السننية في الاجتماع والعمران البشري، مما اندرس بسبب قراءات استجابت لزمانها، وهو ما يعني اشتداد الحاجة إلى دراسات سننية تجعل منطلقها السيرة النبوية؛ تستجلي سنن الله في التاريخ وحركة العمران البشري، وتسهم بما تقدمه هذه الدراسات السننية من مقارنات واستنتاجات وتحليلات في جعل السيرة قادرة

(١) تشير معاجم اللغة إلى دوران مادة: (جدد) على معنيين هما: جد بمعنى صار جديداً، وهو نقيض الخلق (بفتح الأولى وكسر الثانية) والبلى، وجد بمعنى اجتهد، وأصله القطع. انظر:

-ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: (جدد).

على السير بالأمة نحو الشهود الحضاري العالمي بعدما عاشت الأمة لحظات من الصحوة واليقظة الإسلامية خلال القرن العشرين. فتحولات القرن الواحد والعشرين تستدعي خروج مشاريع الإصلاح وبعثات التجديد الحضاري من ضيق مرحلة الصحوة -التي لا ينكر فضلها حيث وظفت فيها السيرة النبوية توظيفاً خدم تلك المرحلة بما لها وما عليها- إلى أفق أرحب يؤسس لمرحلة الحضارة الإنسانية الراشدة بمنطق الشهادة على العالم؛ علماً وحضوراً وتبليغاً ورحمة ووسطاً وعدلاً، وتعاد فيها صياغة السيرة النبوية صياغة أصيلة تجديدية تقدم للقيادات العلمية والميدانية للأمة إجابات وآفاقاً عالمية نحو تحقيق الظهور الكلي للدين.

- نفي ما علق بالسيرة من مناهج ومفاهيم وقراءات منحرفة عطلت مقاصد الاقتداء، وأسرار التأسي المنهجي الموضوعي؛ فقرأت هذه المناهج السيرة على أنها مجرد أحداث مشدودة إلى ماهو تاريخاني متعلق بشروط اجتماعية وتاريخية متجاوزة، وأسقطت تصوراتها الفكرية واختياراتها المعرفية المسبقة على أحداث السيرة النبوية، لتبرير منهج في الفكر أو التربية أو السياسة، وسواء صدرت هذه القراءة ممن يؤمنون بمرجعية السيرة النبوية من أبناء التصور الإسلامي الذين خلصت نياتهم إلا أنهم أخطأوا المنهج، أم صدرت عن أتباع الرؤية العلمانية بتياراتها المختلفة التي كسدت تجارتها فلم تجد ما يحيي صلتها بجماهير الأمة سوى العودة إلى مصادر الإسلام، والاغتراف منها بما يخدم مشاريعها المنحرفة، فإنها قراءة عطلت مقاصد الاقتداء والتأسي المطلوب بالمنهج النبوي.

انطلاقاً من تلك المعاني، فإن التجديد منهج، ورؤية، ولازم من لوازم حركة التدافع وصيرورات الاستخلاف المتعلقة بالدورات الحضارية التي تعيشها الأمة حماية لها من خطر الموت والإبادة الحضارية. كما أن التجديد بعثة إلهية موعودة تجري بحسب سنن مقدرة تربط الأمة بأصولها وثوابتها. وتجديد درس السيرة النبوية هو عودة

بالسيرة النبوية إلى التعلق بالمقاصد الكبرى للرسالة الخاتمة، ونفي لما يمكن أن يكون قد علق بها من أفهام خاطئة، وتثبيت لديمومة عطائها واستمرار فعاليتها في كونها معياراً للتقويم والمراجعة، وضابطاً لتصحيح وتصويب المسار الحضاري للأمة.

إن الدعوة إلى تجديد درس السيرة النبوية دعوة إلى تجديد أمر الدين: فهماً وتنزيلاً. وإذا كان الاجتهاد بشقيه الاستنباطي والتنزيلي تجديداً، فإن التجديد هو أيضاً اجتهاد، وكما يخضع الاجتهاد لضوابط ومسالك قررها المحققون من أهل العلم، فإن تجديد درس السيرة النبوية الذي نرومه هو تجديد منضبط، تحكمه منظومة الوحي العاصمة وقيمه الحاكمة ومقاصده الناظمة، ثم هو يصول بعدها ويجول، يسعف العاملين في مناحي الحياة وعرصاتها، وينجدهم حينما تتوارد الفتن ورود قطع الليل المظلم، معلناً منذ البداية إلزام نفسه أن يقترب ما أمكن من منطق الشاطبي في موافقاته، مثلما يقبس من جرأة ابن حزم في محلاه، متجنباً غرائبه القليلة، ويستنير باختيارات القاضي عياض في شفائه، وبتحقيقات ابن عبد البر في دُرره، وبتمييزات القرافي في فروقه وإحكامه، وأن يقترب من احتياطات ابن حجر في فتحه، ومن تهيبات ابن القيم في زاده، مثلما يساير ويماشي توسيعات وموازنات ابن تيمية في فتاواه، وترجيحات ابن كثير في بدايته، والذهبي في تاريخه، ونظرات ابن خلدون المقاصدية الرامية إلى الكشف عن سنن الحركة الاجتماعية في مقدمته، وتحليلات وسبائك السبكي في رائعته، مع اجتناب ما أفسدته الجزئيات والتفاصيل التي أغرق فيها كتابه فكادت أن تخرجه عن غرضه ومقصوده، وأمثال ذلك مما أتى به علماء آخرون من أهل عصرنا.

إن ما يعين على ضمان سلامة مشروع تجديد درس السيرة النبوية، هو عدم مجاوزة الأصول المقررة التي تقي من التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به، وتعين على توضيح وجه الدلالـة منه دون تعسف في اللفظ أو غرابة في المعنى.

كل ذلك يدل على أن أية محاولة لتجديد درس السيرة، أو الانخراط في إعادة قراءة وقائعها ومروياتها بما يستجيب لمستجدات العصر وتحديات الواقع المعاصر، لا

بد أن يتم بأطر معرفية، وضوابط منهجية، وأدوات ووسائل تحليلية من داخل المنظومة العقدية والتشريعية والقيمية الإسلامية، تراعي مقاصد الشريعة وكلياتها الأساسية، وهو ما ينهض وحده لتشكيل رؤية نحو تبصر المستقبل، وإحكام النظر فيه، ورسم مساراته ومشاهده المحتملة، لضمان الرشد الحضاري وتحقيق الشهادة على العالمين. "وأي ذهول أو غفلة عن المنهج وثوابته وأخلاقياته، وانزلاق نحو التعاطي مع الفروعية التجزيئية بمعزل عن المنهج وضوابطه، سيؤدي لا محالة إلى التورط في متاهات المنهجية الاستثمارية الآلية التنافرية، التي تتعامل مع المعطيات المعرفية الجزئية الهائلة (للسيرة) على أساس جاهزيتها الذاتية للاستثمار التربوي والاجتماعي مباشرة، دون حاجة إلى إعادة تجهيزها وتهيئتها للاستثمار، مع أن معطيات المنهج النبوي العامة تؤكد الحاجة الدائمة إلى التجهيز المنهجي الوظيفي أو التسخيري لهذه المعطيات؛ لاستثمارها في تلبية حاجات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد الاجتماعي والحضاري، ومواجهة تحدياتها المتلاحقة"[1] ولعل تجديد درس السيرة النبوية -كما تقدم- هو جزء من تجديد الدين؛ أي تجديد فهم الدين حتى لا تظل السيرة مجرد تاريخ بالمعنى الزمني للكلمة، وهذا التجديد المنضبط في الفهم والصياغة والتنزيل لسنن العمران البشري المستنبطة في ضوء السيرة النبوية هو جوهر التأسي والاقتداء المقاصدي بالمنهج النبوي، بل هو من أعظم مجالات الاقتداء وأجل مواطن التأسي؛ لأنه متعلق بالفقه الحضاري، واستعادة الأمة الوسط لوراثتها الحضارية، على أن يتم هذا التأسي وفق رؤية مقاصدية سننية كلية تضبط مواطن الاقتداء، وتحرر القول في البشري من سيرته ﷺ وعلاقته بمفهوم العصمة؛ إذ على مطلوب التأسي أن يكون بلا شك مطلوباً مقدوراً عليه من البشر ومنسجماً مع الطبيعة البشرية، وهو أكبر مسوغ للدعوة إلى التأسي والاقتداء. والمقصود بالتأسي وفق الرؤية المقاصدية تلك "المتابعة الواعية البصيرة للمنهج النبوي في القدوة والدعوة والبناء والمواجهة، بما يحقق أصالة

(١) برغوث، **إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية**، مرجع سابق، ص١٣٣.

الجهد وفعاليته واطراده... أي أن التأسي الموضوعي يتحقق بالاستيحاء المقاصدي الواقعي المتوازن لروح المنهج النبوي؛ في مرونته وانضباطيته وحيويته، على ضوء ثوابت وكليات المرجعية الموجهة، وحاجات الواقع القائم ومشكلاته، وإمكانات الإنجاز المتاحة، والظروف المحيطة بعملية الإنجاز، والمآلات المحتملة لذلك على المدى الآني والمتوسط والبعيد."[1] وبذلك وجب على كل تأس واقتداء حتى يكون مقاصدياً: أن يحدد محل الاقتداء، مع التمكن من فقه محل هذا الاقتداء، وتبين مواطن الخصوص والعموم فيه، والثابت والمتغير منه، مع تبصر الواقع ومعرفة الأحوال التي تمر منها الأمة، وما يتيحه هذا الاقتداء من إقامة دين الله تعالى، وما يوفره من فرص وإمكانات لقيام الأمة بواجب الشهادة ومقتضيات العمران، ثم النظر في مآلات هذا الاقتداء، "ذلك أن عدم فقه موقع الاقتداء بالضبط، أو التعرف إلى الواقع الذي تعيشه الأمة في هذه المرحلة بالذات وعدم تحديد الموقع المناسب من مسيرة السيرة الذي يلائمه، فسوف يتحول هذا الاقتداء الأعشى إلى نوع إشكالية بدل أن يكون حلاً."[2]

وحتى يتحقق ذلك الاقتداء المسدد (بفتح الأول) بالمنظومة العقدية والتشريعية والقيمية، والمسدد (بكسر الأول) للنظر المستقبلي وفقه العمران البشري: بناء، وإدارة، وتدبيراً، وحماية، واستشرافاً، لزم بسط جملة ضوابط عامة نجملها في أربعة كبرى هي:

أ- الضابط البياني:

وهو ضابط يوجه لغة البحث في موضوعات تروم تجديد درس السيرة، فيمنع من وقوع التعسف في استعمال اللفظ، ويحجز عن حصول الافتتان بمصطلحات تنتمي في حقيقتها إلى منظومة معرفية وأصول عقدية مناقضة لروح السيرة النبوية. وإذا كانت الوسائل تابعة للمقاصد، وتأخذ حكمها، فإن البيان من حيث هو وسيلة للتبليغ

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

(٢) الشعيبي، أحمد قائد. **وثيقة المدينة: المضمون والدلالة**، سلسلة كتاب الأمة (١١٠)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٤٢٦هـ، ص٢١، من تقديم عبيد حسنة.

والإعراب تابع للمقاصد الكلية للرسالة الخاتمة.

ب- الضابط المعرفي:

يتعلق بالرؤية الأصولية والمرجعية الموجهة التي ترد الفروع إلى الأصول، والجزئيات إلى الكليات، وتضبط مواطن الاقتداء، وتعتمد النظر الكلي والشمول المعرفي، الذي يقدح -كما يقول محمد أحمد الراشد (ولد: ١٩٣٨م، واسمه عبد المنعم صالح العلي العزي)- "لمعات الاجتهاد، ويضم الأدلة إلى بعضها، ويجمعها، وينسقها، ويرتبها، ويلحق النظير بالنظير؛ إذ الاجتهاد ذوق، وتخمين وانطباع تجريبي، وتفرس، وسعة الخيال تؤثر فيه، والافتراض ركن فيه، والزعم أصل، والنظر أرحب، والجزم قليل."[(١)]

ت- الضابط التكاملي (الإبداعي):

يقوم هذا الضابط على التوحيد بين معارف وهدايات الوحي المتمثلة في السيرة النبوية ومكتسبات العلم المعاصر، وما أنجزته البشرية من علوم ومعارف، وإقامة تكامل معرفي ومنهجي بين علوم الوحي -ومنها: السيرة النبوية- والعلوم الإنسانية -ومنها: علوم الاجتماع والتاريخ...- تأكيداً لمبدأ التكامل والتركيب بين العلوم، ورفضاً لإقامة حواجز بين الحقول المعرفية المتعددة تنشطر بسببه مجالات المعرفة وتتشظى، كما حصل في تاريخ الأمة في العصور المتأخرة ذلك الانشقاق والانفصال بين علوم الكتاب والسنة وعلوم الآفاق والأنفس. وفي غياب مثل هذا العمل العلمي فإن "القارئ لدراسة حديثة في السيرة لا يكاد يحس فرقاً مهماً بينها وبين كتاب سيرة ابن هشام أو زاد المعاد على تباين أسلوب ومنهج الكتابين، رغم التطور الهائل في الدراسات الاجتماعية في العصر الحديث، وما تقدمه العلوم الحديثة من معطيات ضخمة تخدم الدراسات الاجتماعية، وللأسف فإننا نعيش على حافة العالم الحديث، ولم نجرؤ على اقتحامه لنفيد من معطياته الثرية المتنوعة، مع أن ما ورثناه من أسلافنا في

(١) الراشد، محمد أحمد. **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية**، أبها: دار المحراب، ط١، (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٩١.

حقل التأليف التاريخي أعظم بكثير مما ورثه المؤرخون الغربيون عن أسلافهم."[1]

ث- الضابط السياقي:

ويتوجه هذا الضابط نحو وضع الحدث أو الواقعة كما ترويها كتب الحديث والسنة، وكتب السير والمغازي في سياقاتها التاريخية (الزمانية والمكانية) خروجاً من وهم التعارض أو التناقض بين المرويات، وطلباً للسلامة والدقة في الاستدلال والاستنباط. وقد ذكر العلامة الطاهر بن عاشور أن بعض العلماء قد يقصر "ويتوحل في خضخاض من الأغلاط حين يقتصر في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ، ويوجه رأيه إلى اللفظ مقتنعاً به، فلا يزال يقلبه ويحلله ويأمل أن يستخرج لبه، ويهمل ما قدمناه من الاستعانة بما يحف بالكلام من حافات القرائن والاصطلاحات والسياق."[2]

ج- الضابط المنهجي:

إن سؤال المنهج في درس السيرة النبوية هو سؤال مركزي وجوهري، ولا تتم مقاربته مقاربة علمية سليمة إلا من خلال الكليات القرآنية وبأدوات المنهجية الأصولية،[3] مع الاعتبار بما عداها من الأدوات المنهجية -خصوصاً العدة المنطقية[1]-

---

(١) العمري، **السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، مرجع سابق، ج١، ص١٤.

(٢) ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٧.

(٣) نبه أحمد الريسوني إلى أن علم أصول الفقه "لما لم تأخذ الكليات مكانتها وحجمها اللائق فيه، لم تسلم بنيته ومباحثه ونتائجه من بعض التيه والاضطراب، على ما له من نفاسة ذاتية، وعلى ما له من فضل جليل في حفظ الوحدة الفكرية للأمة عبر التاريخ." لذلك، لا يمكن إلغاء تلك الجهود العظيمة التي شيدت صرح وقواعد المنهجية في الثقافة الإسلامية المتمثلة في أصول الفقه مع إخضاعها للنظر الكلي القرآني وتحكيمه في تخليص ما شاب تلك المنهجية من فهوم قاصرة واضطراب في أدوات التدليل والاستنباط. ويؤكد طه عبد الرحمن على المنهجية الأصولية -بوصفها العطاء المنطقي الإسلامي غير الأرسطي- في مجال النقد الفلسفي بقوله: "وما وجدت في جوانب المنهجية الإسلامية عموماً، أصلح للقيام بهذه الصلة من المنهجية الأصولية؛ لما تتميز به من إبداع وتكامل وانفتاح.". =

التي تشترك فيها مع مجموع العلوم الإسلامية الأخرى. والمقصود هنا بالضابط المنهجي هو إحكام وتحكيم منهج استقرائي تحليلي نقدي؛ يتقصى جميع المرويات وينظر في أسانيدها ومتونها، ويمحص صحيحها من سقيمها، مستصحباً القرآن الكريم وخصائص هديه المنهاجي[٢] المتمثلة في الإطلاقية والحاكمية والخلود والعالمية والتصديق والهيمنة مصدراً أساسياً في النظر والترجيح، ومعتمداً على رؤية تحليلية نقدية تروم التخلص من كل نظرة تجزيئية أو إسقاطية أو انتقائية.

حـ- الضابط المقاصدي:

تشكل المقاصد ذاتها منهجا كما أشار إلى ذلك الريسوني (ولد: ١٩٥٣م) بقوله: "فالمقاصد بأسسها ومراميها، وبكلياتها مع جزئياتها، وبأقسامها ومراتبها، وبمسالكها ووسائلها، تشكل منهجاً متميزاً للفكر والنظر، والتحليل والتقويم، والاستنتاج

= - الريسوني، أحمد. **الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية**، إصدارات اللجنة العلمية لحركة التوحيد والإصلاح، الرباط: طوب بريس، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص١٢٧.

- عبد الرحمن، طه. **حوارات من أجل المستقبل**، الرباط: منشورات الزمن، كتاب الجيب (١٣)، ٢٠٠٠م، ص٦٧.

(١) عبر طه عبد الرحمن بحسرة ومرارة عن الفقر المنطقي المدقع الذي تعاني منه الساحة الفكرية الإسلامية بقوله: "وهل المنطق إلا علم أنتجته ولا تزال تنتجه عقول فائقة؟! وكم من علم لم يجد طريقه إلى الإنتاج إلا بفضل العدة المنطقية؟! وهل هناك معرفة لا تتوسل بالمنطق؛ تأسيساً وترتيباً وتبليغاً؟! بل متى استقام عقل وأفاد بغير منطق ارتاض عليه ابتداء أو بواسطة". انظر:

- عبد الرحمن، طه. **الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري**، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٢٩٩.

(٢) لتفاصيل القول في تلك الخصائص. انظر:

- العلواني، طه جابر. **القرآن المجيد وخطابه العالمي**، (بحث غير منشور)، ص٢٠-٢٩.

- شبار، سعيد. **الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر؛ دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣٧٩-٣٨٤.

- البوشيخي، الشاهد. "خصائص الهدي المنهاجي للقرآن"، **مجلة حراء**، عدد (١٢)، السنة (٣)، ٢٠٠٨م، ص٥-٩.

والتركيب"[1] ويحدد هذا الضابط المقصد من تجديد درس السيرة النبوية؛ إذ الأمور بمقاصدها، ولعل حسن الفهم وتجديده، وجودة الصياغة وإحكامها، والتأسي والاقتداء بما خلص إليه حسن الفهم وجودة الصياغة هو عين الهدف من إعادة قراءة وقائع السيرة النبوية، وذلك حتى لا تتحول هذه القراءة إلى مجرد متعة عقلية أو ترف فكري.

لذلك، لن يكون الانشغال بهم تجديد درس السيرة ترفاً فكرياً أو انفلاتاً تربوياً يخفي، وراء دعوى التجديد، الانسلاخ من التأسي بصاحبها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والتعالي عن العمل بما عمل به استجابة لأمر الوحي، أو عملاً أكاديمياً محضاً، وإنما هي -بما تقرره تلك الضوابط السابقة- دعوة علمية عاملة مسكونة بهاجس الإصلاح، واستعادة الأمة لدورها الحضاري المتمثل في الشهادة على العالمين.

ثم إنه إذا كانت الكليات المقاصدية للشريعة هي تلك الأسرار، والمعاني، والحكم، والغايات الجامعة الأساسية التي رمت الشريعة لتحقيقها لأجل مصالح العباد، فإنها هي المدخل الأساس والمقدمة العاصمة من انحرافات في تجديد فهم وتنزيل السيرة النبوية، وهو عين ما أشار إليه أحمد الريسوني وهو يشيد فسيفساء منظومة الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية بقوله: "الكليات الأساسية للشريعة هي مقدمة الشريعة، وهي مقدمة وأساس لعلوم الشريعة. ودون اعتماد هذه المقدمة، وإحكام هذه المقدمة، وتحكيم هذه المقدمة، يقع كثير من الخلل والزلل والاضطراب، في فهم الشريعة وأحكامها، وفي ترتيب أصولها وقواعدها وفروعها، وبناء بعضها على بعض... ومن خلالها ومن خلال القرآن الكريم، نتعامل مع السنة النبوية والسيرة النبوية. ومن خلال هذا كله -حسب ترتيبه- نتعامل مع فقه الصحابة (ولا أعني "قول الصحابي" بمعناه الأصولي)، ثم فقه الأئمة وفقه الفقهاء، وعامة تراثنا العلمي..."[2]

---

(١) الريسوني، أحمد. **الفكر المقاصدي؛ قواعده وفوائده**، الرباط: منشورات جريدة الزمن، ١٩٩٩م، ص٩٩.

(٢) الريسوني، **الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٢٧.

ويبدو من خلال سياق الحديث عن تجديد درس السيرة النبوية مركزية تأهيل منهج الفهم والاستنباط عند العقل المسلم المعاصر، ليكون قادراً على إحكام المدخل السنني في قراءة السيرة النبوية، ذلك أن من مقاصد النبوة والرسالة الخاتمة: إخراج الأمة الشاهدة، الأمة الخيرية، الأمة الوسط، الأمة القطب، ولهذا الإخراج سنن تحكمه ويحتكم إليها. ولما حصل الإخراج الأول للأمة وظهر دين الله في مناطق جغرافية من العالم حصل وفق سنن مثلت السيرة النبوية نموذجها المثالي التطبيقي، وأية قراءة لهذه السيرة تجانب هذا المقصد الكلي قراءة لا تنسجم مع معطيات السيرة النبوية نفسها وتعطل بوعي أو بدون وعي الإخراج أو الظهور العالمي للدين الذي وعد الله به هذه الأمة حيث لم تستكمل سنن هذا الظهور.

ثم إن أي فهم أو استنباط للكليات السننية البانية، والحافظة للعمران البشري من السيرة النبوية لا ينتظم وفق الكليات الأساسية للشريعة التي يعد القرآن منبعها ومصدرها، ولا ينضبط لها هو فهم مردود واستنباط مجذوذ.

خ- الضابط الإيماني:

وهو أم الضوابط، فهو المنطلق، فلا صحة ولا وثوق بقراءة تجديدية للسيرة النبوية إلا ممن خبر أحوال الإيمان وذاق حلاوته فاتقى وتورع. فحينما تتجه القراءة السننية التجديدية لوقائع السيرة النبوية نحو تصحيح الفهم، وصوب ذلك الأفق الرحب الذي لا يحصر السيرة في مجرد تحقيق وتخريج لمرويات، وهي عارية من خبر الإيمان واليقين، وتحريك القلوب والأحاسيس، وخالية من الرقائق المذكرة بمقامات العبودية، وحينما يحلق مدعي تجديد درس السيرة النبوية، وهو لم يذق بعد حلاوة الإيمان تتحول هذه القراءة إلى تقريرات يضيق بها القلب لعدم براءتها من الهوى، وأجيال الأمة عبر تاريخها لا تطمئن إلا لمن جمع بين دعوى التجديد والرسوخ في العلم مع التقوى والتجرد والبراءة من الأجر الدنيوي، و"دون الاستواء النفسي الإيماني لا يتاح لأحد الاستواء على الصواب في استنباط الفتوى؛ إذ (النفس المطمئنة بالفقه) هي

الباب، ومدخل الصدق، والمنطلق، ثم هي المخرج، مخرج الصدق، وبها يكون الجزم واعتدال الخطو وصناعة الحياة إذا امتد المسار. قول فصل لا مفاوضة فيه، ومن حرم الرقائق: اضطربت سريرته، وتبرم، وضاقت عليه سعة الاستسلام للأمر الرباني، ومن رام التفلت: طال منه التلفت، ويوشك أن ترهقه المتاهة وتتلفه العوائق."[1]

إن تساند هذه الضوابط يدعو إلى تجديد النظر في درس السيرة، والخروج من ضيق التقليد وضمور الإبداع، والانحسار داخل مجال مجرد جمع المرويات، ودراستها وتخريجها على أهمية ذلك كما أسلفت الإشارة إليه، وضرورة بناء أدوات ومسالك التعامل مع هذا الدرس بما يحقق التوازن بين إعمال مناهج الاستدلال والفهم مع مراعاة المقتضيات التداولية والسياقية للخطاب والفعل النبوي، واستثمار واستمداد قيم التخلق والتأسي وما تستوجبه من أخلاق التجرد والورع، والتحقق بصفات وأخلاق ومنهج القدوة العليا، والأسوة الحسنى الذي نصبه الله تعالى لهذا المنصب صلوات الله وسلامه عليه، وما يقتضيه ذلك التخلق والتحقق من إحكام منهج المتابعة والاقتداء المقاصدي السنني الكلي المحقق لعمران إنساني إسلامي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثمة خللاً حصل في تاريخ الأمة على مستوى أصالة مفهوم القدوة النموذجية وفعاليتها التاريخية في النهوض بمشاريع البناء والإصلاح. فحينما أربكت أفهام كثيرين في التعامل مع القدوة النموذجية حصل انحراف خطير بسبب التجسيد اللأخلاقي واللامبدئي للشخصية القدوة، وفصلها عن عالم الأفكار والمبادئ. وهو ما أدى إلى طغيان الشخص مقابل فعالية الفكرة، وحصل نوع من تصنيم وتوثين النماذج المقتدى بها في خلط صارخ بين المشروع الإصلاحي في منطلقاته ومبادئه، وصاحب ذلك المشروع الذي لم يعد يلتفت إلى فحص أسس مشروعه ووجاهته وحدوده بقدر ما صار ذلك المشروع مقدساً، لما تجسد في صورة شخص ما.

(١) الراشد، **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية**، مرجع سابق، ج٣، ص١٥.

وقد تنبه مالك بن نبي لهذا الانحراف في فكر الأمة فقال: "عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما، هناك خطر مزدوج: فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع الذي جسد في شخصه مثله الأعلى. وسائر انحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خسائر، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في ردة حقيقية يعتقد عبرها بإمكانية التعويض عن الإحباط باعتناق مثل أعلى آخر. وفي كلتا الحالتين فنحن نستبدل دون أن ندري مشكلة الأشخاص بمشكلة الأفكار. وقد سبب هذا الاستبدال كثيراً من الضرر بالأفكار الإسلامية المتجسدة بأشخاص ليسوا أهلاً لحملها. فمن ذا الذي يستطيع أن يجسد الأفكار دون أن يعرض المجتمع للخطر؟ إن خطر التجسيد قد وضعه القرآن صراحة في الوعي الإسلامي بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، هذا التحذير ليس موجهاً هنا لتفادي خطأ أو انحراف مستحيل من الرسول ﷺ، ولكنه من أجل الإشارة إلى خطر تجسيد الأفكار بحد ذاته."[1]

ولعل انفصال عالم السيرة أو الباحث فيها عن واقعه زمن انحطاط الأمة وتراجع وظيفتها الاستخلافية والشهودية، وعدم امتلاكه لتلك القدرات المنهجية التي يتحقق من خلالها ذلك الاجتهاد التنزيلي هو الذي جعل كثيرين يركنون إلى "أسطرة" السيرة، ورفعها فوق المقام الذي أراده الله لها. وهكذا غاب الفهم الدقيق لوقائع السيرة، كما غاب فهم الواقع الاجتماعي والحضاري للأمة، ومن ثَمَّ غاب تنزيل الفهومات من السيرة على نوازل العصر ومستجدات الواقع، وفق منهجية أصولية اجتهادية راشدة. والذي يدفعنا إلى هذا القول هو أن المنهج النبوي السنني في العمران البشري والاجتماع الإنساني، وسيرته ﷺ في التعامل مع الواقع، وضبط حركته وطبائعه وأحواله، "قد استوعب، ومر بالحالات كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضاً وسقوطاً، وحركة وركوداً، وامتلك الحلول

(١) ابن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص٨١-٨٢.

والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها، وإلا كيف استحق أن يكون خالداً، وأن يكون محل الأسوة والاقتداء؟!

لذلك فمن الأهمية بمكان -ونحن بسبيل معاودة النهوض- امتلاك القدرة على الوعي بالمنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، وإدراك مراحله بدقة، ومقاصده في كل مرحلة، ومرونته في التعامل مع الواقع، في ضوء تلك المقاصد، أمراً ونهياً، وحظراً وإباحة، ورخصة وعزيمة، بحسب الظروف والأحوال، والاستطاعات، وتوفر الأسباب، ومن ثم القدرة على تحقيق خلوده، وذلك بتجريده من حدود وقيود الزمان والمكان، وتوليد الرؤى، والأحكام الشرعية، والحلول النبوية للحالات، مع مراعاة الأعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع، في ضوء ظروفه، وامكاناته، وموقعه من مسيرة المجتمع الأول وسيرته، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن اعتماد المرحلية والتدرج لا يعني بحال من الأحوال تجزيء المنهج، وتقطيعه، بمقدار ما يعني استصحاب المراحل كلها، التي مر فيها المجتمع القدوة، للوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، والإدراك الكامل لأبعاد حركة النهوض الشاملة، ومستلزماتها، من خلال المرحلة والموقع، الذي يكون عليه المجتمع اليوم، لتجيء هذه المرحلة في عمرها وموقعها ومكانها مستقبلاً، لبنة في البناء الكامل المأمول."[1]

إن أي تجديد لدرس السيرة النبوية ينبغي أن يقدم منهجاً وآليات لقراءة وتحليل واستثمار نصوص هذا الدرس، وأساليب تحويلية تعمل على نقل نتائج ذلك المنهج لتخرجه من مجرد النظر العقلي إلى فضاءات الفعل والممارسة السلوكية، وتحوله إلى قيم ومبادئ وأسس بانية للعمران البشري وذلك من خلال مستويات ثلاثة:

- على مستوى فهم الخطاب والممارسة النبوية: ضرورة إدراك مقامات الخطاب النبوي ومجالاتها التداولية والوعي بها، ومقامات التصرفات والأفعال النبوية وأحوالها السياقية بهدف الإفادة منها والإحاطة بمقاصدها الكبرى في تشييد

(١) ابن مبارك، **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، مرجع سابق، ص١٠-١١، من تقديم عمر عبيد حسنة.

العمران الإنساني حتى تتحقق تلك الإفادة بقانون الاتساق والانتظام والتعاضد والتساند والترابط بعيداً عن منهج التعضية والتجزيء.

- على مستوى فهم الواقع: لا يقف فهم وقائع السيرة عند مجرد تعقل قضاياها وأحكامها، وإنما يتجاوز ذلك إلى تبصر مواطن ومجالات التنزيل، وهو ما لا يتحقق إلا من خلال فهم الواقع وإدراك طبيعته المركبة في علاقاته، وبنياته ومؤسساته. فلا يقتصر على فهم وقائع السيرة وصياغة رؤى ونظريات وتصورات؛ لأن الغرض هو التأسي والاقتداء وهنا تحديداً التأسي العمراني والاقتداء الحضاري، فوجب التحقق بشرط فهم الواقع بعد فهم وقائع السيرة.
- على مستوى التنزيل: أي تنزيل الفهم المقرر على الموضع والحال المناسب وفق نظر اجتهادي يتفاعل فيه مستوى الفهم والإدراك مع معطيات الواقع وملابساته، مع مراعاة فقه المآلات، واستحضار القرائن والعلامات وأحوال السياق، وتحويل ذلك الفهم إلى ممارسة عملية تجعل من وقائع السيرة واقعاً حياً وعطاء لا محدوداً يتجاوز حدود الزمان والمكان، مع الانفتاح على المستقبل. والذي يضبط تمام ودقة هذا الاجتهاد التنزيلي لنصوص السيرة على الواقع هو ما يصطلح عليه الأصوليون "تحقيق المناط".

ويفيد تحقيق المناط في سياق حديثنا ضرورة القيام باستئناف علمي تجديدي يعمل على تحريك نصوص السيرة ووقائعها صوب الأحداث والنوازل المعاصرة؛ وأكبر نوازل هذا الزمان: ضياع عمران الأمة وريادتها الحضارية، وذلك باستخراج واستنباط الدلالات والأحكام والموجهات المنهاجية والمعرفية لإقامة العمران وفق الرؤية الكونية الحضارية القرآنية. فالنظر في تحقيق المناط دال على استكمال حلقات الربط بين نصوص السيرة والواقع المتجدد، وإن كان تحقيق المناط -كما يقرر الأصوليون- أمراً كلياً عاماً والوقائع جزئية خاصة، ولكن إحكام تحقيق المناط بقواعده وضوابطه، يفضي إلى مدى التوصل إلى انتظام هذه الوقائع والأحوال

والمستجدات، ضمن معنى يجمعها ويوحد بينها أو العكس. ولعل إحكام هذا الأمر هو الذي يتحقق من ورائه محل الاقتداء وضبط مواطنه ومجالاته، والنظر في خصوصية كل واقعة من وقائع العمران، واستمداد ما يصلح لها، وما تتحقق به الإفادة من السيرة، والوقوف على صلاحية النموذج النبوي في الاستجابة لمقصد إقامة عمران إنساني عالمي. ولا شك أن إغفال ذلك مدعاة للوقوع في تحريف نصوص السيرة، ومظنة لتعطيل مقاصدها، وسبب لحصول إسقاطات وفهومات فاسدة. وبذلك فإن المنهج النبوي في "البناء الحضاري، إذا لم يُدرك بمراحله وأبعاده، ويميّز بين ثوابته، ومتغيراته، ومراحله، وتدرك الظروف والشروط، التي توفرت لكل مرحلة، يمكن أن ينقلب إلى معوق، بسبب سوء الفهم، ومن ثم سوء التطبيق، بدل أن يكون دافعاً للنهوض... لذلك فالأمر لا يجوز أن يبقى خاضعاً لرؤية فردية، تدعي الإحاطة بكل شعب المعرفة، وإنما لا بد له من دراسات متخصصة، بشعب المعرفة المتنوعة، شريطة أن تكون متحصنة بالمرجعية الشرعية الكافية، للتمييز بين ما هو من الوسائل، وما هو من الأهداف، وما هو من المباديء، وما هو من البرامج، وما هو من القيم المعيارية، وما هو من الاجتهاد الخاضع للتقويم، لتشكيل رؤية جماعية لكل عصر، بحسب مشكلاته وظروفه، وإمكاناته، وقضاياه، وموقعه من مسيرة النبوة."[1]

إن القول بالسيرة النبوية مصدراً للفقه السنني العمراني على المستوى المنهجي والمعرفي والعملي فرض علينا تقويماً أولياً للدراسات والأبحاث المنجزة في مجال السيرة النبوية وفق المقاربة السننية، وهو ما أفضى بنا إلى القول بتجديد درس السيرة النبوية قراءة وفهماً وتنزيلاً، بما يجعل هذا الدرس معاصراً للأمة اليوم ينير طريقها، ويبصر سبيلها، ويعينها على مواجهة الأزمات المنهجية والفكرية والقيمية، وهي تتلمس فجر غد مشرق في ضوء التحولات السياسية والاجتماعية الراهنة. ولعل مما يعين على الانخراط في مشروع تجديد درس السيرة النبوية الوعي بالسياقات المتعددة والبنيات

(١) المرجع السابق، ص٢٠.

الاجتماعية والأطر المعرفية التي وجد الفقه السنني النبوي نفسه أمامها وهو يخوض أكبر عملية تحول وتغيير في تاريخ البشرية. وهذا ما سيمثل جوهر الحديث في الفصل الثاني من هذا الباب بعنوان: الفقه السنني والسياقات المتعددة.

obeikandl.com